روايات عالمية للجيب 60

كارميلا

تأليف : شريدان لوفانو

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

روايات عالمية للجيب

60

كارميلا

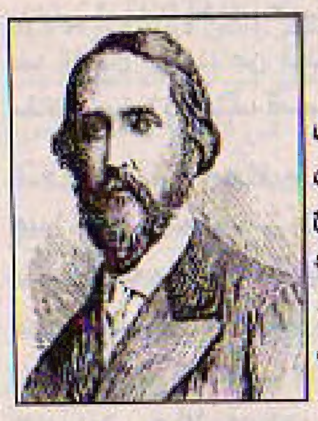
- (كارميلا)!.. عندما يمتزج جو القلاع المهجورة والخرائب والقبور التي يسبح حول شواهدها الضباب، مع المشاعر المضطربة العاصفة لفتاتين مراهقتين..
- (كارميلا)!.. القصة التي لا يمكن الكلام عن الرعب القوطي من دون قراءتها.. ولا يمكن الكلام عن مصاصي الدماء من دون ذكرها..
- القصة التي ألهمت (برام ستوكر) براعته (دراكيولا)، وعاشت في كوابيس العالم الغربي أكثر من قرن كامل..

المؤسسة العربية الحديثة





المؤلف



شريدان لو فانو
Sheridan Le Fanu

أديب أيرلندي فكتوري نال شهرة ساحقة في فترة من الفترات كرائد قصة الأشباح الحديثة، ثم لم يعد أحد يقرؤه لأسباب سوف نتكلم عنها حالاً.
اشتهر بقصصه (الخال سيلاس ـ ١٨٦٤) و(المنزل المجاور لفناء الكنيسة ١٨٦٣) على أن قصته الأشهر هي (كارميلا Carmilla) التي نقدمها لك هنا .. وهي قصة مصاصي الدماء الأهم، ويقال إنها الأفضل كذلك، والتي قيل إنها ألهمت (ستوكر) بقصة (دراكيولا) .. على الأقل كانت من مصادره الأساسية ..

ولد الرجل عام ١٨١٤ في (دبلن) لأسرة ثرية ولأب من رجال الاكليرك .. درس القانون في كلية (ترنتي) وتخرج فيها

عام ١٨٢٧ ، وفى العام ١٨٤٥ قدم قصته الأولى (الديك والمرساة) .. وكان شديد الإعجاب بأدب (والتر سكوت) . لم يمارس المحاماة قط لكنه انهمك فى عالم الصحافة . كان ضد انفصال إيرلندا عن إنجلترا لكن هذا كان يظهر فى مقالاته ، بينما لم تكشف قصصه قط عن ميوله السياسية .

تزوج عام ١٨٤٤ ورزق بأربعة أطفال .. وبعد وفاة زوجته صار أميل إلى العزلة حتى أطلق عليه اسم (الأمير الخفى) بسبب عزلته وانطوائه وعادات كتابته الليلية .. كان يكتب من منتصف الليل حتى الفجر مستعينًا بشمعتين عن يمينه ويساره ، ولم يكن يكتب إلا فى الفراش .. توفى عام ١٨٧٣ ونسيت أكثر أعماله ، ويعود هذا للنظرة العامة حتى فى الخارج إلى أدب الرعب على أنه أقل شأنًا من الأدب الإنسانى .

كان هذا حتى عام ١٩٢٣ عندما قدم الناقد (م . جيمس) مجموعة قصص له تحت عنوان (حكايات الغموض) .. عندئذ تذكر العالم أهمية هذا الأديب وخياله الخصب ..

الأحداث الغريبة فى قصصه تقبل عدة تفسيرات ، منها الأشباح ومنها الهلاوس النفسية أو المجازات اللغوية . هناك قصة له اسمها (الشاى الأخضر) عن قس يطارده شبح قرد ويجعل حياته جحيمًا .. حتى فى لحظات الصلاة يثب القرد ليغطى صفحات الإنجيل . فى النهاية ينتحر القس ، لكن يبقى السؤال عما إذا كان الشبح حقيقيًا أم أن هذه هلاوس سببها الشاى الأخضر الذى اعتاد القس شربه .. فى تلك الفترة شاع شرب الشاى الأخضر الذى اعتقد كثيرون أنه يحوى مخدرًا ما . هكذا كان يترك القارئ تفسيرين ليختار بينهما : الطبيعى والخارق للطبيعة . وكان من عاداته كذلك أن يستخدم قصصه القصيرة السابقة كنواة لرواياته .. إن رواية (مستر جاستيس هاربوتل) كانت قصة قصيرة قديمة له اسمها (وصف لبعض الاضطرابات الغريبة فى شارع أونجير) ..

تحكى قصة العم (سيلاس) حكاية مثيرة لكن من غير أشباح عن الفتاة الشابة (مود) التى توفيت أمها ، ويحاول الوصى الشرير عليها (سيلاس) أن يزوجها ابنه المتزوج فعلاً ليظفر بثروتها ..

وفى قصـة (كارميللا) التى كتبها عام ١٨٧٢ ، نرى صداقة حميمة بين فتاتين ، تدرك واحدة منهما أن صديقتها الحبيبة هى مصاصـة دماء اسمها (ميركالا) عاشت منذ مئات السنين .. عادات مصاص الدماء تختلف هنا عن التقاليد المحفوظة التى تعلمناها من شخصية دراكيولا . على سبيل المثال يمشى مصاصو الدماء هنا فى الشمس . تحتفظ القصة بالكثير من جو الغموض حتى بعد الخاتمة (سوف تجد أن أسئلة كثيرة لم تتم الإجابة عنها .. من المرأة الغامضة التى ترتدى الأسود ؟ من هو السيد الشاحب ؟ هل رؤى الفتاتين مشتركة فعلاً ؟ إلخ .. إلخ) .. لكن هذا الغموض ساحر فى حد ذاته يعطى العمل ثراء شعرياً ..

هذه القصة المحظوظة قدمتها السينما العالمية مرات عديدة ، وقدمتها شركة (هامر Hammer) البريطانية المختصة فى أفلام الرعب عدة مرات فيما عرف بـ (ثلاثية كارنشتاين) .. هذه الأفلام التى قامت ببطولة أكثرها (إنجريد بيت) لم ولن تعرض فى مصر لما فيها من حسية شديدة ، وعلى كل حال يمكن القول إن كل مصاصة دماء فى السينما العالمية خرجت من

عباءة رواية (كارميللا) هذه .. القصة الأصلية قصيرة جداً لذا يمكن اعتبار هذه الترجمة حرفية .

للمهتمين بمعرفة المزيد عن (لو فانو) ، نقدم هذا الموقع اليابانى الذى يستخدم الإنجليزية :

http://www.lang.nagoya-u.ac.jp/~matsuoka/Fanu.html

وهو موقع يقودك لكل ما ذكر عن هذا الأديب على شبكة الإنترنت ، مع الكثير من أعماله طبعاً ..

د . أحمد خالد

مقــدمة

على ورقة مرفقة بالنص التالى كتب د . (هيسيليوس) مذكرة مدققـة مصحوبـة بمراجع بحثـه العلمـى فيما يتعلق بالموضوع الغريب الذى يطرحه النص .

لقد تعامل مع موضوع الدراسـة الغامض بفطنته وثقافته المعهودتين ، وبشـكل مباشر موجز . ولسـوف تشـكل هذه الدراسة مجرد جزء من معرفة هذا الرجل المدهش .

وإذ أنشر هذه القصة فى هذا الكتاب كى أثير شغف سواد الناس ،فإننى لا أضيف شيئاً إلـى جهود السيدة الفاضلـة التى تحكى القصة .. ولهذا أيضا قررت ألا أعرض هنا أياً من آراء الطبيب المثقف أو أستخرج شيئاً من النتائج التى توصل إليها فى موضوع يصفه بأنه (على الأرجـح يتضمـن بعضاً من أعمق أسرار وجودنا المزدوج وأطواره الوسيطة) .

كنت حريصاً وقد وجـدت هـذه الورقـة أن أعيـد فتـح مراسلات د . (هيسيليوس) مع إنسانة بارعـة ذكيـة كالتى

استمد منها معلوماته . إلا أننى عرفت للأسف أنها توفيت فى الفترة السابقة .

كان بوسعها على الأرجـح أن تضيف شيئاً للقصـة التى تحكيها فى الصفحات التالية ، خاصة أنها حكتها بهذه الدقـة وهذه الأمانة .

الفصل الأول

رعب مبكر

فى مقاطعة (شتيريا)(*) نعيش فى قلعة برغم أننـا لسنا بالقوم الأثرياء على الإطلاق . إن أقل الدخل فى هذه البقعـة من العالم يحقق لك الرغد ، وثمانمائة أو تسعمائة جنيه فـى العام كفيلة بتحقيق المعجزات ..

كان أبى بريطانيًا وأنا أحمل اسمًا بريطانيًا برغم أننى لم أر إنجلترا قط .. لكن هنا فى هذه البقعـة المنعزلـة البدائيـة حيث كل شـىء رخيص الثمن ، لا أتصور كيـف يضيـف المزيد من المال شيئاً لرفاهيتنا وراحتنا .

كان أبى يعمل فى الحكومة النمساوية ثم تقاعد واشترى هذه الإقطاعية والعقارات الموجودة بها .. كانت صفقة .

ما كان هناك شىء أكثر جمالاً ولا عزلـة .. إن أرضنـا تقف على بقعة مرتفعة من الدغل ، والطريق العتيق الضيق يمر أمام جسر متحرك لم أره يرتفع فى حياتى كلها .. والخندق العالى

(*) مقاطعة فى النمسا ..

تحت هـذا الجسر يسبح فيه البجع ، وعلى سطحه يطفو السوسن الأبيض .

وفـوق هـذا كلـه تبـدو القلعـة بواجهتهـا ذات النوافـذ الكثيرة ، وأبراجها القوطيـة . وتطل على ساحة مفتوحـة جميلة من الغابة ، وعلى اليمين ينحدر جسـر قوطـى الطابع بالطريق نحو الأحراش .

قلت لك : إن هذا مكان مقفر .. عليك أن تحكم على مقدار صدقى . فلو نظرت من باب الرواق إلى الطريق لوجدت أن الغابة تمتد خمسة عشر ميلاً لليمين واثنى عشـر ميلاً للشمال . أقـرب قريـة مسكونة على بعد سبعة أميال إلى الشمال . أقرب قلعة ذات أهمية تاريخية هى قلعة الجنرال (شبيلزدورف) التى تبعد عشرين ميلاً إلى اليمين .

قلت (أقرب قرية مسكونة) ؛ لأن هنـاك على بعد ثلاثـة أميال غربًا قرية متهدمة بها كنيسة صغيرة بلا سقف ، فيها القبور المتحللة لآل (كارنشتاين) الذين انقرضت أسـرتهم ، والذين كـانوا يملكون القصر الخرب الذى يطل مـن بيـن الأحراش على البلدة .

فيما يتعلق بسبب هجر هذه البقعة الحزينـة ، فهنـاك أسطورة سوف أحكيها لك فى مرة أخرى .

لابد الآن أن أحكى لك عن المجموعة الصغيرة التـى تعيش فـى قلعتنـا .. لن أحصـى الخدم ولا التابعين الذيـن يعيشون فى غرف ملحقة بالقلعة .. أصغ واندهش ! هنـاك أبى أطيب إنسان على وجـه الأرض لكنـه قـد تقـدم فـى العمر .. وأنـا فى التاسعة عشرة عنـدما وقعت قصتـى .. لقد مرت ثمانية أعوام منذ ذلك الحين .. أنا وأبى نمثل كل ساكنى القلعة .. لقـد توفيت أمى النمساوية فى طفولتـى لكن تولـت أمرى مربيـة طيبـة ظلت معى طيلـة طفولتـى . لا أذكر متى لم يكن وجهها الممتلئ العطوف جزءاً مـن ذكرياتى .

كان اسمها مـدام (بيرودون) .. مـن مواليد (برن) .. وقد عوضتنى حنانها عن فقـد أمـى التى لا أذكرهـا .. كـانت هذه المرأة هى الثالثة على مائدة عشائنا .. وكانت هنـاك آنسة رابعة هى مدموازيل (دى لا فونتين) هى ما يطلقون عليه

مساعدة مربية ، وكانت تجيد الفرنسية والألمانية . كنت أنـا وأبى نتكلم الإنجليزية كى لا ننساها ، ومن قبيـل الوطنيـة .. فالناتج كان برج (بابل) اعتاد الغرباء أن يضحكوا منه ..

كانت هناك كذلك ثلاث آنسات من نفس عمرى يزرننا من حين لآخر وكنت أرد لهن الزيارات أحياناً .

كانت حياتى وحيدة . أؤكد لك هذا ..

كانت مربيتاى تسيطران علىّ تماماً ، كمـا لـك أن تخمـن معاملتهما لفتاة مدللة يسمح لها أبوها بعمل أى شىء ترغب فيه .

أول حادثة فى حياتى أحدثت انطباعاً رهيبًا فـى نفسـى لا أستطيع نسيانه ، وكانت من أوائل الأشياء التى حدثت لـى فى حياتى . سوف يرى البعض أنها تافهة بحيث لا تستـأهل الذكر هنا . لكنهم سيفهمون شيئاً فشيئاً أهميتها .

كانت غرفة الحضانة كما يطلقون عليها برغم أننـى كنت أحتلها وحدى غرفـة كبيرة فـى الطابق العلوى من القلعة ولها سقف مائل من خشب البلوط ..

لابد أننى كنت فى السادسة عندما صحوت ذات ليلة ونظرت حولى للغرفة وأنا فى فراشى . لم أر المربية .. ما كنت خائفة لأننى كنت من الأطفال المحظوظين الذين لم يسمعوا قصص الأشباح وكل هذه الحكايات التى تجعلنا نغطى رءوسنا عندما يصدر الباب صريرًا ، أو يتراقص ضوء شمعة فيبدو عمود السرير كأنه يتحرك ..

فقط تضايقت لأننى شعرت بالإهمال وبدأت أئن ، عندما رأيت لشدة دهشتى وجهًا رائع الجمال ينظر لى من جانب الفراش .. كان وجه شابة تركع ويداها تحت غطاء السرير .. داعبت شعرى ثم رقدت جوارى على الفراش وجذبتنى نحوها وهى تبتسم ..

شعرت فجأة بالراحة وعدت للنوم .. إلا أننى صحوت شاعرة كأن إبرتين اخترقتا صدرى بعمق فى اللحظة ذاتها فصرخت بصوت عال ..

تراجعت السيدة وعيناها علىّ ثم نزلت إلى الأرض وبدا لى أنها توارت تحت الفراش ..

الآن شعرت بالخوف لأول مرة .. صرخت بكل قوتى ..

جاءت المربية ومديرة المنزل ومساعدة المربية .. وسمعن قصتى فاستخففن بها وقمن بتهدئتى ، وبرغم أننى كنت طفلة فقد لاحظت أن وجوههن شاحبة من فرط القلق ورأيتهن ينظرن تحت الفراش .. ويفتشن الغرفة وخزان الثياب .. وقالت مديرة المنزل للمربية :

ـ « ضعى يدك على هذا المنخفض فى الفراش .. أحدهم رقد هنا .. المكان ما زال دافئًا »

أتذكر أن المربية ربتت علىّ وتفحصت ثلاثتهن صدرى .. وقلن إنه لا توجد علامة على أن شيئًا مما حكيته قد وقع .

ظلت النسوة الثلاث ساهرات جوارى طيلة اليوم ، ومنذ ذلك اليوم ظلت واحدة معى فى غرفتى حتى بلغت الرابعة عشرة .

بعد هذه الحادثة صرت عصبية ، وطلبوا لى طبيبًا ..

أذكر وجهه الكئيب الذى شوهه الجدرى نوعًا .. وكان يأتى لى يومًا بعد يوم ليعطينى الدواء الذى كنت بالطبع أكرهه .

أذكر كيف جاء أبى ووقف جوار الفراش ثم راح يتكلم فى مرح .. كيف سأل الممرضة عن أشياء وهـو يضحك ، وكيف ربت على كتفى وقال لى ألا أخاف لأن هذا مجرد حلم لا يمكن أن يؤذينى .

لكنى لم أسترح .. لأنى كنت أعرف أن زيارة تلك السيدة لم تكن حلمًا ..

قالت لى مساعدة المربية إنها هى التى جاءت ليلاً ونـامت جوارى ، وإننى بالتأكيد كنت نائمـة فلم أعرفها ، لكن هذا التفسير لم يرق لى .

أذكر ذلك اليوم أن شيخًا جليلاً يلبس ثياب كاهن جاء لغرفتى مع المربيتين ، وراح يتكلم معهما .. كان وجهه عذبًا لطيفًا ..

قال لى إنهم سيصلون وطلب أن أمسك بيده وأقول معه :

ـ « رب اسمع كل صلواتنا من أجل يسوع .. »

أعتقد أن هذا ما قاله لأننى ظللت أردده لنفسى عـدة أعوام كما طلبت منى المربية .

ركع ومعه ثلاث النسوة وصلى بصوت عال .. لقد نسيت الكثير بعد هذا لكن هذه الذكريـات ستبقى حية فى ذاكرتـى كأنها صور من حلم أو هلوسة ..

* * *

الفصل الثاني

ضـــيف

الآن ســـوف أخبرك بشيء غريب حتى إنه يقتضى كل ما لديك من قدرة على التصديق ..

ليس حقيقيًا فقط بل إنه حقيقة كنت شاهد عيان عليها ..

كانت ليلة صيف جميلة وطلب مني أبي أن أتمشى معه في تلك الغابة التي وصفتها لك والواقعة أمام قلعتنا ..

قال أبي ونحن نبدأ جولتنا :

– « لن يلحق بنا جنرال (شبيلزدورف) بالسرعة التي أملناها .. »

كان الجنرال قادمًا لزيارتنا لبضعة أسابيع وكنا ننتظره في الغد . كان سيجلب معه ابنة أخيه المدموازيل (رايتفلت) التي لم أرها قط ، لكن سمعت أنها فتاة فاتنة ، وقد وعدت نفسي

بوقت طيب معها . شعرت بإحباط لأن هذه الزيارة ظلت في أحلامي فترة طويلة .

– « ومتى يأتي إذن ؟ »

– « أجسر على القول إن هذا ليس قبل الخريف . شهران من الآن .. وإنني لسعيد يا عزيزتي لأنك لم تعرفي المدموازيل (رايتفلت) قط »

سألته بفضول :

– « ولماذا ؟ »

– « لأن الشابة المسكينة قد ماتت .. نسيت أنني لم أخبرك لكنك لم تكوني معي عندما تلقيت رسالة الجنرال في ذلك اليوم »

شعرت بصدمة .. لقد ذكر الجنرال في خطاب سابق منذ ستة أسابيع أنها ليست بخير كما يتمنى .. لكن لم يكن هناك ما يدعو للتفكير في أن يحدث هذا ! .

– « هذا هو خطاب الجنرال .. »

فاتها وناولنى الخطاب .. بدا لى الخطاب مكتوبًا بدرجة عالية من الارتباك ..

جلسنا على مقعد تحت أشجار الزيزفون وكانت الشمس تغرب بجلالها خلف أجمة فى الأفق ، وقد راح النهر الذى يجرى جوار دارنا يعكس لون السماء الأرجوانى .

كان خطاب الجنرال عجيبًا شديد الوطء وفى بعض مواضعه شديد التناقض .. قرأته مرتين وبصوت عال لأبى .. وافترضت أن الحزن أفقد الجنرال صوابه ..

قال الخطاب :

ـ « فقدت طفلتى العزيزة التى همت بها حبًا .. فى الأيام الأخيرة من مرض (بيرتا) الحبيبة لم أستطع الكتابة لك .. قبل ذلك لم أدرك مدى الخطر .. لقد فقدتها والآن أدرك بعد فوات الأوان .. لقد ماتت فى سلام وبراءة على رجاء القيامة .. الشيطان الذى خان ضيافتى فعل هذا كله .. حسبت أننى أستضيف الحبور والبراءة صديقين لطفلتى .

لكن رباه ! كنت أحمق ! أحمد الله أن طفلتى ماتت من دون أن تدرك سبب معاناتها ..

سوف أكرس ما بقى من أيامى لاقتفاء أثر الوحش وتدميره .. قيل إن بوسعى تحقيق غرضى .. فى الوقت الحالى لا يوجد بصيص ضوء يهدينى ..

لا أستطيع استجماع كلماتى الآن فأنا مشتت .. فما إن أستعيد قواى حتى أكرس وقتى للتحقيق الذى قد يصل بى إلى (فيينا) .. سوف أقابلك بعد شهرين لو أننى ظللت حيًا ، ولو أنك سمحت لى .. ولسوف أخبرك بما لا أجرؤ على كتابته على الورق الآن ..

وداعًا وصلِّ من أجلى يا صديقى العزيز »

بهذه الكلمات انتهت الرسالة الغريبة .. وبرغم أننى لم ألق (بيرتا راينفلت) قط فإن عينى امتلأتا بالدموع .

كانت الشمس قد غربت وجاء الغسق إذ أعدت خطاب الجنرال لأبى .

كانت أمسية صافية ، وقد مشينا نتناقش حول معنى هذه الرسالة الغريبة غير المترابطة . وكنا على بعد ميل من الطريق الذى يعبر أمام القلعة .. وكان القمر يسطع لامعًا . عند الجسر المعلق قابلنا مدام (بيرودون) ومدموازيل (دى لا فونتين) اللتين خرجتا للاستمتاع بضوء القمر .

كانت الفرجة التى عبرناها أمام عيوننا الآن .. نرى الطريق يمتد إلى جسر جميل قربه تقف قلعة كانت تحرسه فى الماضى .. وخلف القلعة مرتفع تغطيه الأشجار ومجموعة من الصخور التى تلتف عليها أغصان اللبلاب . بينما طبقة رفيعة من الضباب ترتفع كأنها تغلف البعد بغلالة رقيقة ، وكان بوسعنا أن نرى النهر يتألق فى ضوء القمر .

ما من منظر أكثر روعة ، لكنه بدا لى مفعمًا بالشجن بعدما سمعت . ووقفت وأبى نرمق المشهد فى صمت ..

كانت مدام (بيرودون) بدينة رومانسية فى منتصف العمر تتكلم وتتنهد بشاعرية .. أما مدموازيل (دى لا فونتين)

التى كان أبوها ألمانيًا مهتمًا بالسحر وأسرار ما وراء الطبيعة ، فقد قالت إنه عندما يسطع القمر بهذه القوة فإن هناك نشاطًا روحيًا أكيدًا .. إنه يؤثر على الأحلام وعلى حالتنا العقلية وله أثر مادى واضح على حياتنا ..

قالت لنا إن ابن عمها الذى كان يعمل فى سفينة تجارية نام على ظهره ذات ليلة مماثلة على ظهر السفينة ووجهه فى ضوء القمر ، ثم صحا وقد رأى فى الحلم رجلاً عجوزًا يخدشه فى خده .. فإذا بملامحه تشوهت بفظاعة ولم تستعد سحنته طبيعتها ثانية .

قال أبى :

- « إننى أمر بإحدى حالاتى الاكتئابية الليلة .. »

ومرت لحظة صمت راح يردد فيها عبارات من شكسبير الذى يحافظ لنا على لغتنا الإنجليزية ، ثم قال :

ـ « فى الحقيقة لا أعرف سر تعاستى .. إنها تخنقنى بحق .. لكن لا أعرف مصدرها .. أشعر كأن تعاسة عظيمة تقترب منا .. لعل لخطاب الجنرال دورًا فى هذا »

فى هذه اللحظة سمعنا صوت حوافر خيل وعجلات عربة على الطريق ..

وعلى الفور رأينا مصدر الصوت .. فى البداية ظهر فارسان وعبرا الجسر ثم عربة تجرها أربعة خيول .. ثم تلاها فارسان ..

بدا لنا أنها عربة شخص ذى شأن .. وقد رحنا نراقب هذا المشهد غير المألوف فى شغف ..

لقد صار المشهد أكثر إثارة لأنه ما أن تجاوزت العربة الجسر المنحدر حتى أصيب أحد الفرسان بالذعر ونقل ذعره لمن معه .. وعلى الفور انطلق الركب يركض بسرعة محمومة عبر الطريق نحونا .. وبسرعة الإعصار ..

وزادت إثارة المشهد تلك الصرخات الأنثوية الطويلة التى انبعثت من نافذة العربة .

تقدمنا للأمام فى فضول ورعب وظل أبى صامتًا بينما عبرنا نحن عن ذعرنا .. لكن توترنا لم يطل .. إذ أن هناك على الطريق الذى مشوا عليه شجرة زيزفون هائلة الحجم - وعلى الجانب الآخر صليب صخرى عملاق .. فما إن رأته الخيول التى صار عدوها مفزعًا حتى انحرفت بحيث صارت العجلات على جذور شجرة الزيزفون .. عرفت ما سيحدث وأغمضت عينى وأدرت رأسى عاجزة عن رؤية هذا .. فى ذات اللحظة سمعت صرخات المريبتين .

فتح الفضول عينى فرأيت مشهدًا مروعًا .. جوادان كانا على الأرض والعربة مقلوبة على جانبها ، وعجلتان من عجلاتها فى الهواء . كان الرجال يزيلون الحطام بينما سيدة تبدو ذات سلطة تقف وقد تعانق كفاها .. ومن حين لآخر ترفع منديلاً إلى عينيها ..

ومن باب العربة رفعوا جسد سيدة صغيرة بدت لى ، وقد خلت من الحياة ..

أبى العزيز كان يقف الآن بالفعل جوار السيدة الأكبر سناً وقبعته فى يده .. كما هو واضح يعرض مساعدته . لم يبد أن السيدة سمعته أو رأت أى شىء سوى الفتاة الصغيرة التى وضعوها على ضفة الخندق .

دنوت فرأيت أن الفتاة مصدومة لكنها بالتأكيد لم تمت .. وقد وضع أبى أنامله على نبضها ، وطمأن السيدة التى قالت إنها أم الفتاة .. إن النبض خافت غير منتظم لكنه محسوس ..

ضمت السيدة يديها ونظرت للسماء كأنها تعبر عن امتنانها ، ثم عادت لطابعها الدرامى المسرحى الذى أعتقد أنه طبيعة لدى بعض الناس .

كانت ما يمكن أن تعتبره امرأة جميلة بالنسبة لسنها .. فارعة الطول لكنها ليست نحيلة .. ترتدى المخمل الأسود .. شاحبة لها سحنة آمرة ..

سمعتها تقول :

ـ « أتراني ولدت للبؤس والشقاء ؟ ها أنذا فى رحلة حياة أو موت .. ومعنى أن أفقد ساعة هو أن أفقد كل شىء .. لن تستعيد طفلتى صحتها قبل وقت طويل .. لا أجسر على التأخر .. يجب أن أتركها .. ما المسافة التى تفصلنا عن أقرب قرية يا سيدى ؟ يجب أن أتركها هناك فلن أرى عزيزتى أو حتى أسمع عنها ثلاثة أشهر »

جذبت أبى من معطفه وهمست فى أذنه :

ـ « أبى .. سلها أن تبقى معنا .. سيكون هذا رائعًا .. »

قال أبى بصوت عال :

ـ « لو أن المدام وثقت بأن تترك طفلتها لعناية ابنتى ومربيتها مدام (بيرودون) .. وسمحت لى بأن أستضيفها حتى تعود ، فإن هذا سيكون تفضلاً منها علينا .. ولسوف نعتنى بها بكل ما تستحقه الثقة التى وضعتها فينا .. »

قالت المرأة فى شرود :

- « هذا ليس بوسعى يا سيدى .. هذا عبء على كرمك وفروسيتك ».

- « بل هو على العكس كرم عظيم يأتينا فى الوقت الذى احتجنا إليه فيه .. لقد أحبطت ابنتى بسبب سوء حظ أدى لفشل زيارة كانت تتوقع منها سعادة جمة .. إن أقرب قرية بعيدة جداً وليس بها مكان يليق بابنتك .. وليس بوسعك جعلها تسافر أية مسافة دون أن تتعرض للخطر .. »

كان هناك شيء فى تلك المرأة شديد التميز .. شديد الجلال .. تشعرك بأنها شخص ذو حيثية بصرف النظر عن فخامة عربتها .

فى هذا الوقت عادت العربة لوضعها وتم ربط الخيول من جديد .

ألقت السيدة نظرة خالية مـن العاطفـة علـى ابنتهـا ، تتناقض مع ما يتوقعه المرء من بداية المشهد ، ثم أشارت لأبى إشارة خفيفة وانتحت به بعيداً عن مسمعنا .. حيث وقفت تهمس له بوجه صارم يختلف عن ذلك الذى كانت تتكلم به .

دهشت لأن أبى لم يلحظ التغيير ، كما كنت أرغب بشدة فى معرفة ما يقال فى أذنه بهذه الجدية .

انتهت خلال ثلاث دقائق فمشت بضع خطوات إلى حيث كانت ابنتها راقدة ، وركعت جوارها تهمس فى أذنها بضع كلمات كأنها تمنحها البركة وقبلتها على عجل ، ثم صعدت إلى عربتها ..

فرفع الحوذيان بسوطيهما فانطلقت الخيول مسرعة .. يتبع العربة هذان الفارسان فى المؤخرة .

* * *

الفصل الثالث

نحن نقارن الذكريات

راقبنا بعيوننا العربة حتى غابت عن بصرنا فى الغابات التى غمرها الضبـاب .. وتلاشى صوت الحوافر فى الليل الصامت .

لم يبق من شىء يؤكد لنا أن المغامرة لم تكن وهمًا سوى الفتاة التى استطاعت أن تجلس وفتحت عينيها . لم أر وجهها لأنه كان ينظر للجهة الأخرى وسمعت صوتًا عذبًا يقول :

- « أين ماما ؟ »

أجابتها المدام (بيرودون) الطيبة وهدأت من روعها . أخيرًا بدأت الفتاة تفهم وتتذكر ما حدث ، وسرها أن أحدًا لم يصب بأذى .. وإذ عرفت أن أمها رحلت وتركتها هنا ، حتى تعود بعد ثلاثة أشهر بدأت تبكى .

كنت على وشك التدخل عندما وضعت مدموازيل (دى لافونتين) يدها على ذراعى ، وقالت :

- « لا تقتربى .. يكفيها شخص واحد فى المرة حتى لا يصيبها الذعر »

فى الوقت ذاته أرسل أبى خادمًا على حصان ؛ ليحضر الطبيب الذى يعيش على بعد فرسخين ، وتم إعداد غرفة للسيدة الشابة .

كانت غرفة المعيشة عندنا غرفة كبيرة ذات أربع نوافذ تطل على الخندق والجسر المعلق ومشهد الغابة الذى وصفته . كانت مبطنة بخشب البلوط والمقاعد مغطاة بالقطيفة الحمراء .. بينما يكسو الجدران نسيج من الكنفاه تحيط به إطارات مذهبة كبيرة .. هنا كنا نتناول الشاى لأن أبى كان يصر على أن نتناول مشروبنا الوطنى بانتظام مع القهوة والمشروبات الأخرى .

هناك جلسنا فى تلك الليلة نتكلم عن مغامرة المساء ، وكانت الغريبة قد دخلت الفراش فغابت فى نوم عميق ..

قالت المدام :

- « هذه الفتاة أجمل مخلوقة رأيتها فى حياتى .. وهى فى ذات سنك .. وما أجمل صوتها ! »

تساءلت المدموازيل :

ـ « هل رأيتم امرأة في العربة بعد أن أعادوا تقويمها ؟ امرأة لم تغادر العربة قط بل اكتفت بالنظر من النافذة ؟ »

لا .. لم نر امرأة كهذه ..

وصفت لنا امرأة مخيفة تلبس السواد وتضع على رأسها ما يشبه العمامة .. لها عينان واسعتان لامعتان لم تكفا عن النظر من النافذة ..

ـ « وهل لاحظتم شكل الخدم المخيف ؟ »

قال أبي الذي دخل الغرفة :

ـ « نعم .. قبيحو الوجه لهم سحنة آثمة .. أرجو ألا يسرقوا السيدة البائسة في الأحراش .. لكنهم بارعون برغم هذا .. »

ـ « آمل أن السيدة الصغيرة ستخبرنا بالقصة كلها عندما تصحو غدًا .. »

ـ « لا أحسبها فاعلة »

قالها أبي بابتسامة غامضة وهزة رأس ، كأنه يعرف أكثر مما يقول .

عندما انفردت به سألته عما قالته له السيدة عندما انتحت به جانبًا ، فلم يقتض الأمر الكثير من الضغط عليه ..

قال أبي :

ـ « كانت محرجة لأنها ستضايقنا بابنتها ، وقالت إن ابنتها هشة حساسة لكنها لا تصاب بنوبات .. وإنها عاقلة جدًا لا تتوهم أشياء ! »

ـ « ما أغرب هذا الكلام ! لا ضرورة له ! »

ـ « أيًا كان رأيك فهذا ما قالته .. وأضافت أن ابنتها لن تلفظ حرفًا عن حقيقتهم .. واضح أنها تجيد الفرنسية .. أدعو الله ألا أكون قد تسرعت أو ارتكبت عملاً أحمق باستضافتي الفتاة .. »

بالنسبة لى كنت مشتاقة للكلام معها ما إن يسمح لى الطبيب بذلك ..

أنتم يـا مـن تعيشـون فـى المـدن ، لا يمكنكم تصـور لـذة تعرف شخص جديد وسط العزلة التى تحيط بنا .

جاء الطبيب فى الواحدة صباحًا لكنى كنت عاجزة عن النوم ..

قال لنا أخبارًا مطمئنة عن الفتاة ، وقال إنها بخير حال .. لا مشكلة فى أن أراها الآن لو أردت .. هكذا طلبت مقابلتها فخرجت لى الخادمة التى كانت ترافقها تخبرنى أنها موافقـة تمامًا ..

كـانت ضيفتنـا ترقـد علـى فـراش فـى أجمـل غرفـة فـى القلعة .. قطع من المخمل ولوحات فـى كل ركـن .. وجـوار الفراش شموع .. كانت جالسـة وجمالها المذهل يحيط بـه ثوب نوم حريرى موشى بالأزهار .

لكن ما الذى جعلنى أدنو من الفراش ثم أخرس ، وأتراجع للخلف ؟ سأقول لك ..

لقد رأيت ذات الوجه الذى زارنى ليلاً فى طفولتى ، والـذى ظل ثابتًا فى ذاكرتى يلهمنى الرعب أعوامًا ..

نفس الوجه الجميل .. وعليه ذات التعبير الملىء بالشجن ..

لكن سرعان ما تحول هذا إلى ابتسـامة معرفـة لطيفـة .. ساد الصمت ، ثم قالت :

ـ « يا للروعـة ! منـذ اثنى عشر عامًا رأيت وجهـك فـى أحلامى وظل يسكن فيها منذ ذلك الحين »

تغلبت على شعور الرعب ، وقلت :

ـ « ومنذ اثنى عشر عامًا رأيت وجهك فى رؤيا حقيقية .. »

ازدادت ابتسامتها نعومة .. لقد ذهب كل ما حسبته غريبًا فيهـا .. عـاد لـى الاطمئنـان ورحبت بهـا .. أخبرتهـا كـم أن قدومها قد جلب لنا السعادة ..

أمسكت بيدها وأنـا أتكلـم .. كنت خجولاً ككل الوحيدين لكن الموقف جعلنى طلقة اللسان بل جريئة .. لمعت عيناهـا ونظرت لى واحمر وجهها ..

جلست جوارها ، فقالت :

ـ « يجب أن أخبرك برؤيـاى بصددك .. من الغريب أن كلاً منـا رأت الأخرى بهـذا الوضـوح .. كنـت طفلـة فـى السادسة من عمرى وصحوت من نوم متقلب لأجد أننى فـى غرفة تختلف عن غرفتـى .. بهـا خزانـات ثيـاب وأدراج ومقاعد .. كانت الأسرة خالية ولا أحد فى الغرفـة سواى .. نظرت حولى فراق لى شمعدان حديدى ذو فرعين ، وزحفت تحت فراش كى أبلغ النافذة لكن مـا إن خرجت من تحته حتى سمعت بكاء .. نظرت لأعلى بينما أنا بعد على ركبتى ، رأيتك أنت .. بالتأكيد أنت .. كمـا أراك الآن .. فتـاة جميلـة ذات شعر ذهبى وعينين زرقـاوين واسعتين .. رأيتك كمـا أراك الآن .. فبهرنى جمـالك فصعدت إلـى الفراش لأطوقك بذراعى وأعتقد أننا نمنا على الفـور .. فجأة صحوت على صرخـة .. كنت أنت جالسـة تصرخين .. أصابنى الرعـب ووثبت إلى الأرض .. ويخيل لى أننـى فقدت الوعى ، لكن عندما صحوت من جديد كنت فى غرفة حضانتى ثانية .. لـم أنس وجهك منذ ذلك الحين .. »

الآن جاء دورى كى أحكى ذكرياتى ، فراحت الفتاة تصغى لها مندهشة ..

قالت :

ـ « لا أدرى من منا أجدر بالخوف من الأخرى .. لو أنك كنت أقل جمـالاً لأصابنى الرعب منك .. لكن والحال كهذا فإننى أشعر أننا تعارفنا منذ اثنى عشر عامًا .. كـأن قدرنـا كان أن نكون صديقتين منذ طفولتنا .. لم أظفر بأصدقاء قـط فهل يمكن أن تكون كذلك ؟ »

ونظرت لى عيناها السوداوان فى لهفة .

كنت أشعر بانجذاب نحوها بالفعل .. خالط هذا نوع من النفور .. لكن الانجذاب كان هو الأقوى ..

شعرت بأن نوعًا من الوهن والإرهاق يباغتها فقلت لها مساء الخير وأخذت فى الانصراف بسرعة .. وقلت لها :

ـ « الطبيب يرى أنه من الحكمة أن تجلس خادمة معك الليلة .. سوف تحبين هذه الخادمة فعلاً .. »

- « هذا لطيف منكم .. لكنى لا أستطيع النوم أبدًا عندما يكون هناك شخص فى الغرفة معى .. لا أريد عونًا .. لكنى برغم هذا أخاف اللصوص فعلاً ، فقد سرق بيتنا ذات مرة وقتل خادمان .. لذا أغلق حجرتى علىّ ليلاً .. صارت هذه عادة .. أعتقد أننى أرى مفتاحًا فى ثقب الباب .. »

ثم عانقتنى وهمست فى أذنى :

- « عمت مساء يا عزيزتى .. من الصعب أن أتركك لكننا سنلتقى غدًا .. »

وغاصت فى الوسادة وراحت عيناها تتابعاننى ..

تأثرت كثيرًا بالعاطفة الحارة التى أظهرتها نحوى .. برغم أننى لا أستحقها ..

وجاء اليوم التالى والتقينا .. كان جمالها كما رأيته كاملاً .. إنها أجمل من رأيت فى حياتى . وبالتأكيد نسيت تلك الذكرى المرعبة ، وهى أيضًا اعترفت أنها عاشت ذكرى مماثلة ، لذا ضحكنا كثيرًا ، ونحن نسترجع أوهامنا السابقة .

* * *

الفصل الرابع

عاداتها .. ونزهة قصيرة

قلت لكم إننى فتنت بها .. لكن بعض أشياء منها لم ترق لى ..

كانت أطول قامة من المتوسط المعتاد للنساء . كانت نحيلة حلوة الشمائل ، فيما عدا أن حركاتها كانت متثاقلة بطيئة .. بطيئة جدًا .. لا شيء فى مظهرها يوحى بقلة الكفاءة ، فقد كانت ملامحها جميلة متناسقة ، وكان شعرها رائعًا ثريًا وطويلاً لونه بني داكن جميل فيه لمسة من ذهب ..

وفى غرفتها كانت تجلس على مقعدها وتتكلم بصوت عذب خافت .. رباه ! لو كنت أعرف !

قلت إن هناك أشياء لم ترق لى .. مثلاً كانت متحفظة دومًا بصدد نفسها وأمها وأسرتها وكل ما يتعلق بها .. يجب أن أعترف أننى كنت أفتقر للحكمة .. كان علىّ أن أحترم نصيحة السيدة ذات الرداء المخملى التى قالتها لأبى .. لكن الفضول عاطفة لا تكل ولا تمل ، ما من فتاة تحتمل ألا يُروى هذا الفضول .. ما الضرر فى أن تخبرنى بما كنت أتحرق شوقًا لمعرفته ؟ هل هى لا تثق بى ؟

لم لا تثق بي وقد وعدتها أنني لن أفشي حرفًا مما تخبرني به لكائن أرضي يتنفس ؟

كان لديها برود يتجاوز سنها ، في ابتسامتها وفي رفضها أن تمنحني بصيص نور ..

لا أستطيع القول إننا تشاجرنا بصدد هذا .. وكان من سوء الخلق أن ألح عليها لكن لم يكن هذا بوسعي .. كل ما سمحت لي بمعرفته ثلاثة أشياء : اسمها (كارميللا) .. أسرتها عريقة نبيلة .. منزلها يقع غربًا ..

لم تخبرني باسم أسرتها ولا شعار نبالتها ولا حتى بلدهم ..

لا تتوقع أنني ضايقتها بأسئلتي .. فقط رحت ألمح ومرة أو اثنتين سألتها بشكل مباشر .. لكنني كنت أفشل في كل الظروف .. لكنها كانت تصاحب امتناعها هذا بنوع من الحزن الراقي وإظهار ثقتها فيّ بحيث لم أكن أتضايق منها ..

ـ « لا تتعبي نفسك يا حبيبتي ولا تسألي عني .. فقط ثقي بي .. »

كانت كلماتها ومخاوفها غامضة بالنسبة لي ، وكانت تعانقني من حين لآخر فأشعر برغبة غريبة في التحرر منها

لكني لا أجد القوة .. كانت كلماتها تبدو لأذني كأنها أغنية مهد وكانت تجعل مقاومتي شبه نعاس .. لا أفيق منه إلا حين تبعد ذراعيها عني ..

ثمة شعور مبهم بالنفور لكني كنت أدرك أن حبي لها يصل لدرجة الهيام ، مع مقت شديد .. أعرف أن هذا تناقض لكن ليس بوسعي أن أشرح مشاعري بلغة أوضح .

الآن بعد عشر سنوات أكتب هذا ويدي ترتجف إذ أتذكر الأحداث التي كنت أمر بها ولا أدرك كنهها .. أشياء كهذه أتذكرها بصعوبة برغم وضوح باقي تفاصيل قصتي .. أعتقد أن في حياتنا أحداثًا عاطفية صاخبة تصير وسط الذكريات الأخرى باهتة شبه منسية .

كانت تمسك بيدي وتقول :

ـ « أنت لي .. سوف تكونين لي .. وأنا وأنت سنكون واحدًا للأبد .. »

ثم تسقط في مقعدها ويداها الصغيرتان على عينيها ، تاركة إياي أرتجف ..

وكنت أسألها :

ـ « هل نحن قريبتان ؟ ماذا تقصدين ؟ أنــا لا أعرفك ولا أعرف نفسي حينما تتكلمين بهذه الطريقة »

لم أستطع قط أن أكون نظرية مرضية بصدد هذه اللحظات الغريبة .. لا أستطيع أن أفسرها بالخداع أو بشدة الحب ..

ترى هل تزورها لحظات جنون نتيجة لإهمال أمها المتعمد لها ؟ أم أن هذه لعبة من ألعاب التخفي التي قرأت عنها في كتاب قديم ؟

ماذا لو أن ولداً عاشقاً تخفى في ثوب فتاة وجاء بيتنا بمساعدة تلك المغامرة البارعة المسنة ؟ لكن كانت هناك أشياء كثيرة تدحض هذه الفرضية .. كانت فتاة تماماً تتصرف كفتاة .. وكانت واهنة بشكل يتناقض مع فكرتي عن الرجال .

في نواح أخرى كانت طباعها غريبة .. ليس بالنسبة لسيدة مدنية مثلك ، لكنها كذلك بالنسبة لريفيين من أمثالنا .. كانت تصحو من نومها متأخرة جداً .. ليس قبل الواحدة ظهراً .. ثم تتناول الشيكولاته الساخنة ولا تأكل .. ثم تخرج في نزهة .. عندها كانت تظهر التعب بسرعة وتعود للقلعة أو تجلس على أحد المقاعد بين الأشجار . لم أر في حياتي من يقهره التعب بسرعة مثلها .

كان هذا تعباً جسدياً خالصاً لا يعترف به عقلها ، لأنها كانت تتكلم بطلاقة وذكاؤها لا يهن لحظة .

جلسنا هناك ذات عصر فمرت بنا جنازة .. كانت جنازة فتاة جميلة شابة .. ابنة أحد حراس الغابة عرفتها .. وكان أبوها المسكين يمشي وراء تابوت ابنته وقد تحطم قلبه تماماً إذ كانت ابنته الوحيدة .

وقفت كي أظهر احترامي وشاركت في النشيد الجنائزي الذي بدا لي عذباً ، هنا هزتني صاحبتي بنوع من الخشونة فاستدرت لها . قالت في جفاء :

ـ « ألا تسمعين مدى نشاز هذا اللحن ؟ »

قلت لها :

ـ « بل أعتقد أنه عذب .. »

وكنت متضايقة من مقاطعتي ، وخشيت أن يسمعنا الناس في الموكب المار أمامنا . عدت للغناء فقالت (كارميلا) :

ـ « أنت تثقبين أذني .. ثم كيف تعرفين أن دينـي ودينك متماثلان ؟ إن طقوسكم لا تروق لي وأنـا أكره الجنازات .. لماذا ؟ سوف تموتون .. الكل سيموت .. والكل سيكون أكثر سعادة عندما يفعل ذلك ! »

- « تعرفين أنها ستدفن اليوم .. »

- « هي ؟ لا أبالي بالفلاحين .. ولا أعرف من هي .. »

- « هي فتـاة بائســة رأت شبحاً منذ أسبوعين .. ومن لحظتها تحتضر حتى ليلة أمس »

- « لا تتكلمي عن الأشباح .. فلن أنام الليل لو فعلت »

- « أتمنى ألا يكون هذا وباء قادماً .. لقد ماتت زوجة مربي الخنازير منذ أسبوع .. وقد اعتقدت أن شيئاً أمسك بحنجرتها وهي نائمة وكاد يخنقها .. يقول بابا إن هذه الرؤى تسبق الأوبئة .. »

- « لحسن الحظ أنها ماتت ولن تؤذي آذاننا بأناشيدها الجنائزية النشاز .. هلمي اجلسي جواري وامسكي بيدي .. اضغطي ، اضغطي أكثر .. »

فجأة مر بوجهها تغيير أثار رعبي للحظة .. لقد اربد ثم احمر بشكل مروع .. وقطبت وزمت شفتيها .. ثم راحت ترتجف كأنها مصابة بالملاريا .. بدا كأن كل طاقتها حشدت لمقاومة نوبة ، وسمعت صرخة بعيدة من شفتيها .. وفي النهاية بدا أنها تهدأ وأن نوبة الهستيريا زالت .

ثم قالت :

- « هذه هي نتيجة خنق البشر بأغان جنائزية ! »

كانت هذه أول مرة أرى فيها علامات الوهن التي تكلمت عنها أمها .. أول مرة أراها تتصرف بهذه الطريقة .

* * *

ذات مرة كنا نقف في النافذة الموجودة بغرفة المعيشة عندما رأيت في فنائنا مشعوذاً أعرفه جيداً .. كان يزور القلعة مرتين في العام . كان أحدب له ملامح معينة تصاحب هذا التشوه .. وكان يرتدي قبعة مدببة ويضحك ضحكة عريضة تظهر أنيابه .. ومن خلفه كان يجر فانوساً سحرياً وصندوقين ، أعرف أن في أحدهما سلامندر(*) والآخر به وحش ملفق صنعه من قطع من القردة والببغاوات وخيطها بعناية .. ومن حزامه تتدلى أشياء كثيرة يستعملها في عروض الحواة .. وإلى جواره كلبه .

توقف المشعوذ عند منتصف الجسر ونزع قبعته وانحنى لنا في احترام قائلاً شيئاً بالفرنسية .. ثم أخرج كماناً وراح يعزف في نشاط وحيوية حتى جعلني أنفجر ضحكاً برغم نباح الكلب ..

(*) نوع من الضفادع ..

لنا من نافذتنا ، وبدأ يعرض علينا بضاعته السحرية من تعاويذ لصد الشرور عنا .. فاشترت (كارميلا) تعويذة وكذا فعلت أنا ..

كان ينظر لنا .. لحظة شعرت أن عينيه السوداء تحملق فينا بتدقيق كأن هناك شيئًا أثار فضوله .. ثم مد يده يفتح حقيبة جلدية مليئة بغرائب الأدوات المعدنية ..

- « فليأخذ الله هذا الكلب ! » ثم وجه الكلام لي « أنا أجيد يا سيدتي ضمن أشياء كثيرة فن علاج الأسنان .. إن ضيفتك الكريمة كما أرى لها أنياب طويلة حادة .. حادة كالإبرة .. بنظرتي الثاقبة أرى هذا .. ها ها !! فإن كان يؤذي السيدة الصغيرة كما أعتقد فهاأنذا .. بمبردي وكلابتي .. لأجعله غير مدبب تمامًا .. هذا لو سمحت لي .. هل تجرأت ؟ هل تجاوزت حدودي ؟ »

بالفعل بدا أن السيدة الصغيرة غاضبة جدًا وهي تنسحب من النافذة .

قالت في حنق :

- « كيف يجرؤ هذا المشعوذ على إهانتي ؟ أين أبوك ليأخذ بحقي ؟ لو كان أبي هنا لربط هذا النصاب إلى شجرة وأمر بجلده ، ثم وسمه بشعار القلعة ! »

ثم بدأت تهدأ فجأة ..

عندما عاد أبي في المساء كانت معنوياته منخفضة .. أخبرنا أن هناك حالة وفاة أخرى كسابقتها .. لقد مرضت أخت فلاح في إقطاعيته ومن الواضح أنها قد قاربت النهاية .

قال أبي :

- « كل هذه الوفيات أسبابها طبيعية .. هؤلاء البؤساء ينقلون عدوى الخرافات لبعضهم من ثم يتخيل كل منهم ذات صور الرعب التي رآها جيرانه .. على كل حال نحن بين أيادي الله وما من شيء مكروه يمكن أن يصيبنا إلا ما كتب لنا .. إنه خلقنا وهو يرعانا .. »

قالت صديقتي الشابة :

- « خالق ؟ هذا المرض الذي يهاجم الفلاحين طبيعي .. الطبيعة ! كل شيء يأتي منها .. كل ما في الأرض والسماء يعمل ويوجد حسب قوانين الطبيعة .. أليس كذلك ؟ »

قال أبي من دون أن يرد عليها :

- « سوف يأتي الطبيب اليوم .. أريد أن أعرف ما يفكر فيه .. »

قالت (كارميللا) :

ـ « الأطباء لم يفيدونى قط »

ـ « هل كنت مريضة ؟ »

ـ « مريضة جداً .. أكثر مما تتصور .. أصبت بذات الداء لكنى نسيت كل شىء ما عدا الألم والوهن .. »

وطوقت خصرى وغادرنا الغرفة بينما انهمك أبى فى دراسة بعض الأوراق على المكتب .

جاء الطبيب فى ساعة متأخرة واجتمع مع أبى بعض الوقت .. كان رجلاً بارعاً فى الستين يحلق وجهه ليصير ناعماً كاليقطينة .. وعندما غادرا كان السرور بادياً على أبى ..

قال الطبيب :

ـ « على كل حال لا تنس أن الحياة والموت أمران غامضان لا نعرف عنهما شيئاً »

وانصرفا .. لم أعرف وقتها ما يعنيه الطبيب .. لكن أحسبنى فهمت الآن ..

* * *

الفصل الخامس

تشابه مدهش

فى تلك الليلة وصل من (جراتس) ابن منظف الصور وهو يركب عربة يجرها حصان ، عليها صناديق امتلأت بالصور .. عندما يصل زائر من (جراتس) كنا نلتف حوله لنسمع آخر الأخبار .

كانت الخادمات يستقبلنه أولاً ويسمعن منه الأخبار وهو يلتهم العشاء ، ثم نقابله نحن وهو فى الممر مسلحاً بالمطرقة والإزميل ليعلق الصور .. بينما أبى يمسك بقائمة بها أرقام الصور التى أخذها الرجل لينظفها .

كانت (كارميللا) جالسة ترقب المشهد فى فتور .. بينما راحت الصور التى أرسلناها له لتجديدها تعلق واحدة تلو الأخرى . إن أمى نمساوية من أصل مجرى وكانت أكثر الصور فى دارنا تخصها .. لا أعتقد أن الصور كانت جميلة لكنها بالتأكيد كانت قديمة جداً .. بعضها كنت أراه لأول مرة بعد التجديد لأن الدخان والغبار كان يحجبها ..

قال أبي :

- « ثمة صورة لم أجدها بعد .. على ركنها تجد اسمها .. (مارشا كارنشتاين) .. بتاريخ ١٦٩٨ .. »

تذكرت الصورة .. كانت صورة صغيرة شبه مربعة بلا إطار .. لكنها كانت مغطاة بالسواد بحيث لا تميز شيئاً منها ..

أخرجها منظف اللوحات في نوع من الفخر وعرضها علينا .. كانت مذهلة .. كانت الجمال بعينه ! كانت نسخة أخرى من (كارميللا) !

صحت في دهشة :

- « (كارميللا) يا عزيزتي ! إنها لمعجزة ! ها أنت ذي حية في هذه الصورة .. أليست جميلة يا بابا ؟ حتى تلك الوحمة فوق حنجرتها! »

ضحك أبي ، وقال :

- « بالفعل هو تشابه مدهش .. »

- « هلا سمحت لي بتعليقها في غرفتي يا بابا ؟ »

- « بالطبع يا عزيزتي .. »

لم يبد على (كارميللا) أي تقدير لهذه المحادثة .. وبدا كأنها لم تسمعها .. كانت مسترخية في مقعدها تنظر لي في تأمل .. وابتسمت في نوع من الانتشاء .

أعدت قراءة الاسم :

- « ليس (مارشا) .. إنه (ميركالا) كونتيسة (كارنشتاين) .. إن أمي من نسل (كارنشتاين) .. أي إنني أنتمي لهم »

قالت الفتاة :

- « آه .. وأنا منهم .. لكنه نسب قديم جداً .. هل ما زال هناك أحياء بينهم ؟ »

- « لا أحد .. لقد فنت الأسرة في الحروب الأهلية على قدر علمي .. لكن خرائب قلعتهم على بعد ثلاثة أميال من هنا »

قالت في تراخ :

- « رائع ! لكن انظري إلى ضوء القمر ! كم هو جميل ! ما رأيك في أن نقوم بجولة لنشاهد الطريق والنهر ؟ »

- « إنها مثل الليلة التي جئتنا فيها »

نهضت وخرجنا معاً .. وفي صمت مشينا عبر الجسر ..

- « إذن تتذكرين ليلة مجيئي .. هل أنت سعيدة بذلك ؟ »

قالتها بصوت كالهمس .. فقلت :

- « مسرورة جداً يا عزيزتي .. »

- « وقد طلبت أن تعلقي الصورة في غرفتك لأنها تشبهني ؟ »

وأراحت رأسها على كتفي فقلت لها :

- « أنت رومانسية جداً يا (كارميللا) .. لو حكيت لي قصتك التي تخفينها لوجدنا أنها مليئة بالرومانسية .. لابد أن هناك قصة حب كبيرة في حياتك .. »

- « لم أحب أحداً قط .. لو أحببت لاخترتك أنت ! إنني أعيش فيك .. ولسوف تموتين من أجلي .. فأنا أحبك ! »

تراجعت عنها في رعب ..

كانت تنظر لي بوجه خلا من كل تعبير وكل لون ..

- « هل أنت بخير يا (كارميللا) ؟ يبدو لي أنك موشكة على فقدان الوعي .. »

- « نعم .. أنا كذلك .. سوف أستعيد صحتي بعد قليل .. فقط دعينا نعد »

وعلى الباب قالت :

- « دعينا نلق نظرة أخيرة .. إنها المرة الأخيرة على الأرجح التي أرى فيها ضوء القمر معك »

بدأ الرعب ينتابني من أن تكون أصيبت بذلك الوباء الغامض الذي يغزو البلاد من حولنا . لكنها طمأنتني أنها بخير ، ومرت الليلة من دون أن تصيبها نوبات الافتتان تلك التي تصيبني بالرعب ..

لكن حدث في تلك الليلة شيء جعل أفكاري تتخذ منحنى جديداً .. ويبدو أن هذا الشيء جعل خمولها الملحوظ يتحول لنوع من النشاط العابر ..

* * *

الفصل السادس

رعب غريب

عندما اجتمعنا فى غرفة المعيشة ، رحنا نحتسى القهوة والشيكولاته مع المربيتين لكن (كارميللا) لم تشارك .. ثم رحنا نلعب الورق .. وجاء أبى ليظفر بما يسميه (طبق الشاى) .

انتهت اللعبة فجلس أبى جوار كارميللا على الأريكة وسألها عما إذا كانت سمعت أخباراً عن أمها منذ وصولها .

- « لا .. »

سألها عن عنوان مناسب للمراسلة .. فأجابت فى غموض :

- « لا أستطيع أن أجيب .. لكننى كنت أفكر فى الرحيل .. أنتم ودودون جداً مضيافون وقد سببت لكم متاعب جمة .. أعتقد أن بوسعى أن آخذ عربة وأبحث عنها غداً فأنا أعرف أين يمكن أن تكون لكن ليس بوسعى أن أخبركم »

- « لا يجب أن تفكرى فى شىء كهذا .. لن أسمح برحيلك إلا تحت رعاية أمك التى تكرمت بالموافقة على تركك هنا حتى تعود .. لكن هذه الليلة يتزايد ذلك الوباء الغريب الذى يغزو

الجيرة ، وإننى لأشعر بمسئولية خطيرة خاصة مع افتقارى لنصائح أمك .. لكننى لن أسمح برحيلك من دون توجيه مباشر منها .. »

أجابت وهى تبتسم فى حياء :

- « شكراً لك ألف مرة يا سيدى على كرم ضيافتك .. لم أشعر قط بالسعادة كما شعرت بها فى قصرك الجميل .. فى رفقة ابنتك العزيزة »

ثم إنه نهض وبطريقته القديمة الفخمة لثم يدها .

رافقت (كارميللا) كعادتى لغرفتها ، وجلست أثرثر معها قبل أن تدخل الفراش ، ثم تركتها .

* * *

أتساءل إن كانت ضيفتنا الجميلة لا تصلى أبداً .. لم أرها راكعة قط وفى الصباح لم تكن تنزل حتى تنتهى صلوات أسرتنا .. ولم تحضر قط صلاة المساء معنا . لم أسمعها قط تتكلم فى أى شىء دينى .. لو كنت أعرف العالم أكثر لما أثار دهشتى هذا التجاهل .

إن طباع الناس العصبيين معدية ؛ لذا اكتسبت من كارميللا عادة إغلاق غرفة النوم عليّ ليلاً .. وتعلمت منها البحث السريع في حجرتي كي أتأكد من عدم وجود سفاح مختبئ .

هكذا كنت أخلد للنوم مع ضوء في غرفتي .. تلك عادة يصعب أن أتخلص منها .. هكذا بوسعي أن أنال راحتي في سلام .. لكن الكوابيس تخترق الجدران الصخرية ، وتسخر من الأقفال .

رأيت حلمًا مخيفًا في تلك الليلة .. لا أستطيع أن أعتبره كابوسًا لأني كنت مدركة أنني في غرفتي وفي فراشي .. كنت أرى شيئًا أسود يتحرك عند قدمي في الفراش .. لم أتبين كنهه أولاً ثم أدركت أنه يبدو كقطة سوداء عملاقة .. كانت تروح وتجيء بذلك القلق الشرير الذي يميز الوحوش الحبيسة في قفص .. لم أستطع الصراخ لكني كنت مذعورة طبعًا ..

كان يدنو مني أكثر فأكثر .. حتى لم أعد أرى إلا عينيه .. ثم صعد إلى الفراش وعيناه قرب وجهي ، ثم شعرت بألم إذ اخترق نابان متباعدان بوصة صدري ..

صحوت صارخة لأجد أن الشمعة تضيء الغرفة .. رأيت خيال فتاة تقف عند قدم السرير .. كانت في ثوب أسود

واسع وشعرها يغطي كتفيها .. ما كانت الصخرة لتقف بثبات أكثر .. لم تبد منها أية علامة على التنفس ..

وفجأة بدا أنها تقترب من الباب .. الباب ينفتح وهي تعبر منه ..

استعدت قدرتي على التفكير ، فكان أول ما خطر لي أن كارميللا كانت تلعب حيلة معي .. جريت للباب فوجدته موصدًا كما هو من الداخل ..

خفت أن أفتحه وأصابني الرعب ..

دخلت فراشي وتدثرت بأغطيتي حتى الصباح ..

* * *

الفصل السابع

الانحــــدار

لا جدوى من محاولة أن أشرح مدى الرعب الذي أذكر به تلك الليلة حتى اليوم . لم يكن رعبًا لحظيًا كالذي تخلفه الكوابيس إنما هو رعب ينمو مع الزمن ، وبدا كأنما يتصل بالغرفة التي شهدت ذلك الظهور الشبحي .

لم أستطع في اليوم التالي أن أتحمل لحظة وحدة ، لكني لم أخبر بابا .. اكتفيت بأن أخبر المربيتين بما يثقل على روحي .

ضحكت المدموازيل لكن أعتقد أن مدام (بيرودون) شعرت بقلق .

قالت المدموازيل :

- « بالمناسبة .. إن ممر شجر الزيزفون وراء نافذة غرفة كارميلا مسكون ! »

قالت المدام :

- « كلام فارغ ! من قال هذا ؟ »

- « (مارتين) قال إنه جاء مرتين عند بوابة الفناء قبل الشروق ، فرأى نفس الشبح الأنثوي يمشي في طريق أشجار الزيزفون .. كان خائفًا جدًا وهو يحكي لي .. لم أر في حياتي أحمق خائفًا مثله .. »

قلت :

- « لا تقولي هذا لكارميلا .. فهي ترى هذا الممر من نافذتها وهي أكثر مني جبنًا »

جاءت (كارميلا) متأخرة نوعًا هذا اليوم . كانت تحكي عن كابوس داهمها ليلًا إذ رأت شيئًا أسود كالنمر الكبير في غرفة نومها ، وأنه انقض عليها لكنها أمسكت بتلك التعويذة التي اشترتها من الأحدب ووضعتها تحت الوسادة ، فاختفى ذلك الشيء .

كنت قد تركت تعويذتي في مزهرية في غرفة المعيشة ..

اليوم لا أذكر بالضبط كيف استجمعت شجاعتي لأنام في غرفتي ثانية وحدي .. لكني قمت بتثبيت التعويذة على وسادتي ونمت كما لم أنم من قبل ..

مرت الليـلة التالية على خير كذلك .. كان نومي عميقـاً بلا أحلام .. لكني صحوت شاعرة بأسى وشجن وإن لم يكن هذا شعوراً سيئاً ..

حكيت لكارميلا القصة فقالت إنها لم تر كوابيس هي الأخرى ..

- « ما سبب هذا في اعتقادك ؟ مم صنعت هذه التعويذة ؟ »

- « لابد أنها غمست في عقار معين يعمل ترياقاً للبرداء (الملاريا) .. »(*)

- « أي أنه يؤثر على الجسد فقط ؟ »

- « طبعاً .. لا يمكن أن تخاف الشياطين من قطعـة جلد لها رائحة الصيدليات .. لا يوجد سحر في الموضـوع .. كل شيء يمكن تفسيره بأسباب طبيعية »

هكذا تعددت تلك الليالي التي أنام فيها جيداً ثم أصحو بشعور شجن غريب . بدأت فكرة الغوص لأسفل تستحوذ عليّ وبدأت أشعر بأنني أموت .. وقبلت هذه الفكرة ببطء شديد .. حتى لو كانت حزينة فقد شعرت روحي بعذوبتها ..

(*) في ذلك الزمن كانت أية حمى تعتبر ملاريا .. بل كان أي مرض يعتبر ملاريا .. وبالطبع افترضت الفتاة أن الكوابيس التي تراها ناجمة عن هذا المرض ..

ظلت كارميلا لطيفة معي ، وإن ازدادت لحظات توددها الغريبة نحوي ..

لا أعرف كيف حدث هذا ، لكني كنت تحت وطأة أغرب مرض كتب لشخص فان أن يراه .. كنت مفتونة به حتى بدأ نوع من الرعب يخالطه .. كان هذا الشعور يزداد عمقاً حتى صبغ كل حياتي ..

بدأت النقطة التي عندها رحت أهبط في فوهة (أفرنـوس Averno)(*) .. وبدأت أحلام غامضة تزورني لا أذكر منها إلا القليل ..

لقد مرت ثلاثة أسابيع على بداية هذا التدهور ، وقد صار منظري الآن ينبئ عن معاناتي ..

صارت عيناي واسعتين محاطتين بالسواد .. وشحبت جداً ..

راح أبي يسألني عما إذا كنت بخير فكنت أصر بعناد على أنني كذلك .. وبشكل ما كان هذا صحيحاً فقد كان بدني سليماً .. فقط تلك الأوهام التي أحتفظ بها لنفسي ..

(*) فوهة في اليونان كثيرة الظلال ، لذا اعتبرها الإغريق مدخل العالم السفلي .. المراد هنا أنها موشكة على الموت ..

لا أعتقد أنه ذلك الداء الذى أطلق عليه الفلاحون هنا اسم (أوبير vampire) لأننى مريضة منذ ثلاثة أسابيع بينما الداء لا يترك ضحيته حية أكثر من ثلاث ليال .

سأحكى لك الآن حلمًا قادنى لكشف غريب .

ذات ليلة سمعت فى الظلام صوتًا ناعما وبرغم هذا كان شليعا يقول لى : « أمك تحذرك من السفاح .. »

وفى هذه اللحظة أضيئت الغرفة بشكل ما ، ورأيت كارميلا فى ثوب نومها الأبيض ، وقد اغتسلت من قمة رأسها حتى أخمص قدميها فى الدم !

نهضت صارخة وقد حسبتها قتلت ، وكل ما أذكره بعد هذا هو وقفتى فى الردهة أصرخ .

هرعت المربيتان لى من غرفتيهما ، وأضاءتا مصباحًا فلما رأيتا مظهرى فهمتا ..

أصررت على قرع باب كارميلا .. رحنا ندق الباب ونتادى بلا جدوى ..

ازداد رعبى ، لأن الباب موصد من الداخل .. عدنا لغرفتى ورحنا ندق الجرس .. ما كان أبى ليسمع هذا الصوت لأن غرفته

بعيدة .. وما كانت واحدة منا تجسر على قطع الممرات الرهيبة الواصلة إلى غرفته ..

جاء الخدم وكنت قد ارتديت روبًا وحقًا قواصلنا لنداء (كارميلا) بلا جدوى ..

طلبت من الرجال اغتصاب القفل .. ففعلوا ذلك بينما رفعنا أضواءنا عالية على الباب ..

انفتح الباب فرأينا الغرفة بوضوح .. لم تكن هناك إجابة .. كل شىء كان مرتبًا كما تركتها عندما ودعتها مساء .. لكن (كارميلا) قد اختفت ..

* * *

الفصل الثامن

البحــث

بدأنا نهدأ نوعًا عندما وجدنا أن الغرفة غير مقلوبة .. وخطر للمدموازيل أن كارميلا صحت خائفة على صوت الدق على الباب فتوارت تحت الفراش أو خلف ستار .. بالطبع لن تخرج ما لم ينصرف كبير الخدم ورجاله ..

رحنا نناديها من جديد وقد ازداد رعبنا .. توسلت لكارميلا إن كانت تلعب لعبة سخيفة أن تقطعها لأن رعبنا شديد ..

الآن كنت مقتنعة أنها ليست في الغرفة .. هذا غريب؟ هل تراها اكتشفت ممرًا سريًا من تلك الممرات التي قيل إنها تملأ القلعة؟.. إن كان الأمر كذا فلسوف يتضح سريعًا ..

كانت الرابعة صباحًا ففضلت أن أمضي بقية الليل في غرفة المدام..

كان القلق عامًا في اليوم التالي وتم تفتيش كل ركن في القلعة .. حتى بدأ أبي يفكر في نزح البحيرة .. وراح يفكر قلقًا فيما يقول للأم المسكينة لدى عودتها ..

في الساعة الواحدة صعدت لغرفة كارميلا، فأصابني الذهول لأنها كانت هناك تجلس إلى منضدة التزين! لم أصدق عيني! كان الرعب على وجهها وأشارت لي في صمت كي أقترب ..

جريت نحوها في سرور وعانقتها وقبلتها، ودققت الجرس منادية أبي ..

ـ « أين كنت أيتها العزيزة؟ لقد قتلنا القلق عليك »

قالت:

ـ « ليلة البارحة كانت ليلة العجائب »

ـ « اشرحي لي »

ـ « في الثانية صباحًا كنت نائمة وراء الباب الموصد .. لم أحلم ولم يقلقني شيء .. لكني صحوت الآن لأجد نفسي على الأريكة .. وجدت باب غرفتي محطمًا .. كيف حدث هذا دون أن أستيقظ؟ لا بد أن الضوضاء كانت عالية .. كيف لم أصح أنا التي يوقظني النسيم ذاته! »

هنا دخل أبي والخدم الغرفة، وغرقت كارميلا في بحر من الأسئلة والتهاني .. لم يكن لديها أي تفسير لاختفائها، وما قالته كان أقل تفسير معقول ..

راح أبي يذرع الغرفة مفكرًا فرأيت كارميلا تحدجه بنظرة طويلة سوداء ..

اقتادها إلى الأريكة وجلس جوارها ، وقال :

- « هلا سمحت لي يا عزيزتي بأن أسألك سؤالاً ؟ »

قالت :

- « ومن لديه الحق أكثر منك ؟ سل ما تريد .. لكن قصتي هي الحيرة والظلام .. لا أعرف أي شيء آخر .. سل ما تريد لكن تذكر الحدود التي وضعتها ماما .. »

- « بالطبع يا طفلتي العزيزة .. لا أريد التطرق للمواضيع التي ترغب أمك ألا نطرقها .. إن أعجب ما حدث ليلة أمس هو أنك انتزعت من فراشك وغرفتك دون أن تستيقظي .. وهذا حدث والنوافذ موصدة والأبواب مغلقة من الداخل .. سوف أخبرك بنظريتي لكن لابد من سؤال أولاً .. »

خفضت كارميلا رأسها في عزيمة خائرة ، بينما حبست أنفاسي أنا والمربية ..

- « سؤالي هو : هل قيل لك إنك تمشين في نومك يومًا ما ؟ »

- « منذ كنت طفلة لم يحدث هذا .. »

- « لكنك مشيت في طفولتك ؟ »

- « نعم .. مربية عجوز أخبرتني بهذا .. »

ابتسم أبي :

- « حسن .. هذا ما جرى .. نهضت في نومك ومشيت وفتحت الباب وأخذت المفتاح معك .. ومشيت إلى واحدة من الحجرات الخمس والعشرين في هذا الطابق .. على كل حال هناك الكثير من الحجرات وخزانات الثياب وكثير من قطع الأثاث الثقيلة .. تفتيش هذا القصر يقتضي أسبوعًا كاملاً .. هل فهمت ما أريد قوله ؟ »

أجابت :

- « فهمت .. لكن ليس كل شيء .. »

سألته :

- « لكن كيف تفسر يا بابا أن نجدها على الأريكة في غرفة النوم التي فتشناها بعناية ؟ »

ـ « جاءتها بعدما قتلناها وكانت بعد نقهــة .. في النهاية استيقظت تلقائيًا ودهشت لما حدث لها أكثر من أي شخص آخر .. أتمنى لو كان تفسير كل الألغاز بهذا الوضوح والنقاء مثل لغزك يا (كارميلا) .. »

ثم ضحك وأردف :

ـ « يجب أن نكون سعداء لأن التفسير لا يشمل التحذير أو اقتحام الأبواب أو اللصوص أو الساحرات .. لا شيء يخيف يا كارميلا .. لن نقلق على سلامتنا »

كانت كارميلا في ذروة حسنها .. لم يكن شيء أكثر جمالاً منها في تلك اللحظة .. ونلها زادها جمالاً .. وأعتقد أن أبي كان يقارن في ذهنه سرًا بين جمالها وجمالي ..

على كل حال انتهت المحنة وعادت السعادة لنا ..

* * *

الفصل التاسع

الطبيـــب

لما كانت كارميلا ترفض وجود خادمة معها في الغرفة ، رتب أبي أن ينام خادم خارج بابها حتى لا تحاول مرة أخرى أن تجول من دون أن يقبض عليها على باب غرفتها .

مرت الليلة هادئة ، وفي الصباح جاء الطبيب نيراني ، ولم يكن أبي قد أخبرني بهذا ..

اصطحبتني العدام إلى المكتبة وهناك كان الطبيب صغير الحجم بشعره الأبيض وعويناته ـ والذي تكلمت عنه من قبل ـ ينتظرني .

حكيت له قصتي فبدت الخطورة والجدية على ملامحه .. كنا واقفين في إحدى النوافذ يواجه أحدنا الآخر .. حينما انتهيت أراح كتفيه على الجدار وثبت عينيه علي باهتمام فيه لمسة رعب ..

بعد دقيقة تفكير طلب من المربية أن تقوده ليرى أبي .

جاء أبي على الفور ، وقال باسمًا :

ـ « أتوقع أن تقول لي يا دكتور إنني أحمق عجوز لأنني جلبتك هنا .. أتمنى هذا »

لكن ابتسامته تبخرت إذ أومأ له الطبيب بوجه لا هزل فيه .

انفرد بالطبيب وكلمه بعض الوقت .. بدا لى أنه موضوع جاد مثير للجدل ..

كانت الغرفة واسعة وقد وقفت أنا والمدام بعيدًا نحترق من الفضول .. لم نميز كلمة واحدة لأن الصوت كان خفيضًا ..

بعد دقيقة نظر أبى للغرفة . كان شاحبًا غارقًا فى التفكير .. وأعتقد أنه كان مذعورًا .

قال لى :

ـ « لورا يا عزيزتى .. تعالى هنا .. مدام .. نحن لن نزعجك فى الفترة التالية »

دنوت منهما خائفة .. كنت واهنة لكنى بالتأكيد لم أشعر أنى مريضة ..

قال أبى وهو ينظر للطبيب :

ـ « هذا غريب فعلاً .. (لورا) .. تعالى هنا يا عزيزتى وكلمى د. (سبيلبرج) .. ولتستعيدى ذكرياتك .. قلت إن هناك إبرتين اخترقتا جلدك قرب العنق فى الليلة التى زارك فيها أول كابوس .. هل هناك ندوب باقية ؟ »

أجبت :

ـ « بتاتًا .. »

ـ « هلا أشرت لنا إلى مكان دخول الإبرتين ؟ »

أجبت :

ـ « تحت حلقى بقليل .. هنا »

قال الطبيب :

ـ « لن تمانعى فى أن يكشف لنا بابا هذا الثوب لنرى موضع الإصابة »

أنزل بابا الثوب بوصتين تحت عنقى ثم صاح :

ـ « فليباركنى الرب ! إن الأمر كذلك فعلاً ! »

قال الطبيب فى لهجة انتصار كئيب :

ـ « تراه بعينيك الآن ! »

بدأ الذعر ينتابنى :

ـ « عم تتكلمان ؟ »

- « لا شيء يا عزيزتي ماعدا بقعة زرقاء في حجم طرف إصبعك .. والآن .. »

ثم استدار لأبي يسأله :

- « السؤال المهم هو : ماذا علينا عمله ؟ »

ثم نادى المدام وقال لها :

- « أرى أن صديقتي الصغيرة أبعد ما تكون عن الصحة .. لن يسبب هذا خطرًا لكن لابد من اتباع خطوات معينة سوف أشرحها لك .. وفي الوقت ذاته لا تسمحي (لمس) لورا بأن تكون وحيدة لحظة واحدة .. هذا هو أهم توجيه لك .. »

وعدته المدام في حماسة ولهفة .

هنا سأله أبي :

- « يجب أن أعرف رأيك بصدد مريضة أخرى تشبه أعراضها أعراض ابنتي بشكل أخف بكثير ، لكنها ذات النوع .. إنها تلك الشابة ضيفتنا .. لكنك تقول إنك ستمر من هنا مساء فمن الأفضل أن تتناول عشاءك معنا .. ولسوف تراها فهي لا تصحو من النوم إلا عصرًا .. »

قال الطبيب :

- « شكرًا .. سآتي هنا في السابعة مساء .. »

هكذا غادر أبي مع الطبيب ، ورأيتهما يمشيان في الطريق وعبر الخلاق .. ومن الواضح أنهما غارقان في محادثة مهمة جدًا ..

لم يعد الطبيب .. رأيته يمتطي حصانه راحلاً غربًا نحو الغابة ..

في الوقت ذاته رأيت ساعي البريد القادم من (دريتفلد) ينزل حمولته ويناول أبي الخطابات .

كنت منهمكة مع المدام نحاول تخمين ما لمح له أبي والطبيب ..

كما حكت لي المدام فيما بعد ، فإنها شعرت كأن الطبيب كان يخشى أن أصاب بنوبة مفاجئة .. ولو لم يكن هناك من يراقبني فربما هلكت أو آذيت نفسي بشدة .

لم يدهشني هذا وتصورت رحمة بأعصابي أن المقصود من هذا منعي من إرهاق نفسي بالرياضة أو التهام فاكهة غير ناضجة أو عمل أي من الخمسين شيئًا التي يفترض ألا يعملها الشباب .

بعد نصف ساعة جاء أبي وهو يمسك بخطاب وقال :

- « هذا الخطاب تأخر .. إنه من جنرال (شبيلزدورف) .. كان المفترض أن يكون هنا أمس لكنه قد يصل اليوم أو غداً .. »

وضع الخطاب في يدي ، لكنه لم يبد مسروراً كعادته عندما يأتي ضيف يحبه بشدة مثل الجنرال . بالعكس بدا كأنه يتمنى أن يغرق الرجل في البحر الأحمر .. أعتقد أن شيئاً كان في ذهنه لا يريد أن يفصح عنه ..

وضعت يدي على يده ونظرت في عينيه وقلت :

- « بابا .. هلا شرحت لي ؟ »

(ملس) على شعري وقال :

- « ربما .. »

- « هل الطبيب يعتقد أنني مريضة جداً؟ »

- « كلا .. يعتقد أنه لو اتخذنا خطوات صحيحة فسوف تستعيدين صحتك .. خلال يوم أو اثنين »

ثم أردف بجفاف :

- « تمنيت لو أن صديقنا الطبيب الجنرال اختار وقتاً آخر .. كنت أتمنى أن تكوني بخير عندما تستقبلينه »

- « ماذا يقول الطبيب عني بالضبط ؟ »

- « لا شيء .. عليك ألا ترهقيني بالأسئلة .. »

قالها في ضيق لم أره عليه في حياتي .. فلما رأى أنني جرحت ، قبلني وأضاف :

- « سوف تعرفين كل شيء خلال يومين .. هذا كل شيء .. في الآن ذاته لا ترهقي نفسك بالأسئلة »

وغادر الغرفة . لكنه عاد قبل أن أغرق في الحيرة حول معنى هذا كله .. لقد عاد ليخبرني أنه ذاهب إلى قلعة (كارنشتاين) وأنه طلب أن يعدوا العربة للرحيل في الثانية عشرة ..

عليّ أنا والمدام أن نرافقه .. يريد أن يقابل القس المسئول في هذه المنطقة الجميلة .. عندما تصحو كارميللا سوف تتبعنا مع المدموازيل ومعهما ما يصلح لنزهة خلوية .. حيث نتناول طعامنا في خرائب القلعة .

فى الثانية عشرة كنت مستعدة .. فما أن انطلقنا فى رحلتنا حتى انحرفنا يميناً لنقطع الجسر القوطى .. ثم غرباً حتى نبلغ القرية المهجورة وأطلال قلعة (كارنشتاين) .

لم يكن هناك أجمل من هذا المنظر .. لكن تعرجات الطريق كثيراً ما تخرجك عن مسارك ، فيلتف حول منخفضات ومناظر شتى رائعة الجمال ..

فى نقطة من تلك النقاط فوجئنا بصديقنا القديم الجنرال ..

كان قادماً نحونا على صهوة جواده ، وكانت حقائب سفره تتبعه فى عربة مستأجرة ..

ترجل الجنرال وتبادلنا التحيات ، وبعد إقناع بسيط قبل أن يأخذ المقعد الخالى فى عربتنا .. وعاد حصانه مع خادمه إلى القلعة .

* * *

الفصل العاشر

محروم

لم تكن قد رأيناه منذ عشرة أشهر لكن هذه الفترة غيرت شكله كأنها أعوام .. نحل كثيراً وبدا أن الكآبة والقلق قد حلا محل الهدوء الذى كان يميز ملامحه .

عيناه الزرقاوان الغامقتان المخترقتان صارتا تلمعان ببريق حازم تحت حاجبيه الكثين .

لم يكن هذا هو التغير الذى يسببه الحزن فقط .. يبدو أن لبعض العواطف الغاضبة دوراً فى هذا ..

بدأ يتكلم بطريقته العسكرية المباشرة عن الثكل الذى يعانيه بعد وفاة طفلته .. فجأة انفجر فى نوبة غضب عن (الفنون الشيطانية) التى سقطت ضحية لها . وكان غاضباً أكثر منه حزيناً وهو يتساءل عن سبب صبر السماء على هذه الممارسات الشريرة الشهوانية .

كان أبى قد فهم على الفور أن شيئاً غريباً جداً قد حدث ، فسأله - إن لم يؤلمه هذا - أن يوضح كلامه أكثر .. يوضح سبب هذه اللغة العنيفة التى يستعملها ..

قال الجنرال :

- « يمكن أن أحكى لكنك لن تصدقنى .. »

- « ولم لا ؟ »

قال مشاكسًا :

- « لأنك لا تصدق إلا ما يتفق مع معتقداتك الأولى .. كنت مثلك فى البداية ثم تعلمت »

قال أبى :

- « جربنى .. أنا لست متصلب الرأى كما تظن .. أنا أعرف أنك لا تعتقد فى شىء إلا إذا وجدت البرهان عليه ، لذا استنتاجاتك دقيقة جدًا .. »

هنا نظر أبى إلى الجنرال وقد بدا أنه مرتاب بشكل واضح فى قواه العقلية . لحسن الحظ لم يلحظ الجنرال هذا .. كان ينظر فى كآبة إلى حدود الغابة التى تمتد أمامنا .

قال :

- « هل أنت ذاهب إلى خرائب (كارنشتاين) ؟ هذه مصادفة ممتازة .. كنت سأطلب منك أن تأخذنى هناك لأفحصها .. ثمة

شىء أرغب فى رؤيته .. كنيسة قديمة .. أليس كذلك ؟ بها مقابر هذه الأسرة المنقرضة ؟ »

قال أبى :

- « هذا مثير .. هل تنوى المطالبة بهذا العقار ؟ »

قال أبى هذا فى مرح .. لكن الجنرال لم يضحك ولم يبد أية علامة على أنه سمع دعابة صديق .. على العكس بدا صارمًا جدًا وربما أقرب إلى التوحش .. كأن هناك شيئًا يستفزه ..

قال :

- « أنا أنوى بعون الله أن أحقق عملاً خيّرًا هنا .. عملاً سيريح أرضنا من وحوش ، ويجعل الأبرياء ينامون فى أسرتهم فلا يخشون الاعتداء .. ثمة أشياء غريبة سأخبرك بها يا صاحبى وكانت غريبة بالنسبة لى منذ بضعة أشهر »

نظر له أبى ليس فى عدم تصديق بل فى اهتمام وخوف ..

قال :

- « بيت (كارنشتاين) انقرض منذ زمن طويل .. مائة عام على الأقل .. زوجتى كانت منهم لكن الاسم واللقب انقرضا ..

القلعة هدمت والقرية هجرت .. مرت أعوام منذ خـرج آخر دخان من مدخنة هناك .. سأحكي لك في حينه لكننا الآن سنلتزم بترتيب الأحداث ..

ـ « أنت رأيت ابنتي .. طفلتي .. ما من مخلوق في جمالهـا ولطافتها »

قال أبي :

ـ « نعم .. المسكينة .. حين رأيتها آخر مرة كانت لطيفة جداً .. ولقد حزنت فوق التصديـق عندمـا عرفـت بخـبر الضربة التي وجهت لك »

احتشدت الدموع في عيني الجندي العجوز ، وقال :

ـ « نحن صديقان قديمان وكنا أعرف أنك ستحزن من أجلي .. أنت تعرف أنها ليست ابنتي بالضبط لأنني لم أرزق بأطفال لكني وصيت عليها .. إن ما بقي لـي مـن أعوام علـى الأرض لن يطول ، لكني بعون الله أرغب في إسداء خدمة للجنس البشري قبل أن أموت .. أريد أن أصب انتقامي على من سلبوا الفتاة حياتها في ربيع شبابها .. »

قال أبي :

ـ « أنت وعدت بقص كل شيء .. أريد أن أسمع .. »

كنا قد بلغنا نقطة طريق (درونشتال) الذي جاء منه الجنرال ، والذي يتفرع من الطريق الذي نقصد به (كارنشتاين) .

سأل الجنرال في قلق :

ـ « كم نبعد عن القرية ؟ »

قال أبي :

ـ « نحو نصف فرسخ . والآن دعنا نسمع القصة التي برعت في تشويقنا لسماعها »

* * *

الفصل الحادي عشر

القصـــة

بعد لحظات من الصمت راح الجنرال يرتب أفكاره ، وبدأ يحكي واحدة من أغرب ما سمعت من قصص .

- « طفلتي العزيزة كانت تتطلع بشوق لزيارتكم .. وفي الوقت ذاته تلقينا دعوة من صديقي القديم الكونت (كارلسفلد) .. وقلعته على بعد ستة فراسخ من قلعة (كارنشتاين) .. كانت ضيافته لنا كضيافة الملوك .. كأن عنده مصباح (علاء الدين) ينفذ له ما يشتهي من أحلام ..

« الليلة التي بدأ حزني منها هي ليلة حفل تنكري رائع .. كانت الأرض مفتوحة والأشجار مزينة بالمصابيح .. مع عرض ألعاب نارية لم تره باريس نفسها .. والموسيقا ! تعرفان أن الموسيقا ضعفي ! موسيقا تستلب الوعي ! أعظم آلات موسيقية وأعظم عازفين يمكن أن تجدهم في أوروبا ..

شعرت وأنا أسمع وأنظر كأنني أحمل حملاً إلى رومانسية شبابي .

عندما انتهت الألعاب النارية ، وبدأ الحفل ، عدنا للغرف التي فتحوها للراقصين ..

كان حشداً أرستقراطياً جداً .. وكنت أنا النكرة الوحيدة هناك ..

وكانت طفلتي العزيزة في غاية الجمال .. لم تكن تضع قناعاً ، وقد أضفى حماسها وسرورها فتنة على ملامحها ..

كانت هناك شابة يبدو أنها ذات شأن متألقة وتضع قناعاً ، وتراقب طفلتي باهتمام فائق ..

لقد قابلتها هذه الأمسية في أكثر من مكان .. وكانت ترافقها سيدة مقنعة بدورها ، فاخرة الثياب .. وقد بدا أنها عظيمة الشأن ترافق الفتاة كوصيفة .

لو أن الفتاة الصغيرة لم ترتد قناعاً لعرفت بيقين أكبر إن كانت تراقب طفلتي أم لا .. الآن أنا متأكد من أنها كانت تراقبها .

دخلنا صالوناً وكانت طفلتي المسكينة ترقص وتستريح قليلاً على مقعد قرب الباب ، فدنت السيدتان اللتان ذكرتهما ، ووقفت واحدة جواري بينما جذبت الأخرى مقعداً وجلست جوار طفلتي .

مستفيدة من قناعها استدارت السيدة نحوى ونادتنى باسمى وبطريقة صديق قديم .. ثم بدأت محادثة معى أثارت فضولى بشدة .

تحدثت عن مواقف عدة قابلتنى فيها . فى المحكمة أو منازل شهيرة .. وتذكرت أحداثًا معينة نسيتها، لكنها كانت تنتظر فى عقلى معلقة بانتظار لمستها لتصحو ..

صرت أكثر فضولاً لمعرفة من هى .. لكنها تملصت من محاولاتى ببراعة وبشكل لبق .. إنها تعرف أمورًا كثيرة فى حياتى بشكل لا يمكن تفسيره .. وكانت هى تجد لذة غير عادية فى إذكاء فضولى .. فى رؤيتى أتخبط بين حدس وآخر .

فى الوقت ذاته كانت الفتاة الشابة التى تطلق عليها أمها اسم (ميلاركا) - وهو اسم عجيب - قد استطاعت بسهولة وبراعة أن تبدأ حديثًا مع طفلتى ..

قالت مقدمة نفسها إن أمها معرفة قديمة جدًا لى .. كانت تتكلم بتلك الجرأة التى يمنحها للناس القناع .. كلمتها كصديقة وأطرت ثوبها وأطرت جمالها ..

راحت تسليها بدعابات عن الناس فى قاعة الرقص .. كانت ذكية جدًا مفعمة بالحيوية متى أرادت .. هكذا صارتا صديقتين بعد قليل وأنزلت الفتاة قناعها مظهرة جمالاً ملحوظًا ..

لم أر وجهها من قبل وكذا طفلتى .. كانت ملامحها جميلة فعلاً حتى أنه كان من العسير ألا تشعر بالانجذاب ..

بدا لى أن طفلتى والغريبة قد وقعتا فى حب بعضهما .. ومن النظرة الأولى ..

بدأت أوجه بعض أسئلة للسيدة .. قلت لها :

- « أنت حيرتنى فهل هذا غير كاف ؟ الآن هل يمكن أن نتعادل وأن تسمحى لى بأن أنزع قناعك ؟ »

أجابت :

- « هل يوجد طلب أقل تعقلاً من هذا ؟ تطلب من سيدة أن تتنازل عن مزية تمنحها التفوق ؟! .. ثم من قال إنك ستتعرفنى ؟ الأعوام تغير الكثير .. »

ضحكت ضحكة فيها شجن ، وقلت :

- « كما تريدين .. »

- « بل كما يقول لنا الفلاسفة .. وكيف تضمن أن مرأى وجهى سيساعدك ؟ »

- « يجب أن أجرب .. لكن لا جدوى من التظاهر بأنك امرأة عجوز .. معالم جسدك تخونك »

- « برغم هذا هي أعوام منذ رأيتني ورأيتك .. (ميلاركا) هناك هي ابنتي .. لا يمكن إذن أن أكون صغيرة السن .. حتى في رأي من علمهم الزمن التسامح .. لا أحب أن تقارن وجهي بما تذكره عني . ثم إنك لا تضع قناعًا لذا ليس لديك ما تبادل به ... »

- « أطلب عطفك أن تنزعي القناع .. »

- « وأنا أضم عطفك لعطفي كي يبقى القناع حيث هو »

- « على الأقل هل أنت فرنسية أم ألمانية ؟ فأنت تجيدين اللغتين »

- « لن أصرح بهذا .. أعتقد أنها طريقة تتفنن بها للكلام .. »

لم أعرف وقتها أن هذه المحادثة معدة سلفًا .. وأنها غالبًا تدربت عليها كثيرًا ..

هنا قاطعها سيد مهذب يلبس الأسود .. فقط لا يعيبه إلا أن وجهه هو الشحوب بعينه .. شحوب لم أره إلا في الموتى ..

لم يبتسم لكنه تحلى في رقة وتهذيب ، وقال :

- « هلا سمحت لي سيدتي الكونتيسة بأن أخبرها كلمات قليلة سوف تهمها بشدة ؟ »

نظرت له المرأة ثم طلبت مني أن أحفظ لها مقعدها ونهضت مع الرجل . كانت تتكلم بجدية تامة مع ذلك الرجل ثم توارت في الزحام ولم أعد أعرف أين هي .

ظللت أحاول تخمين شخصية السيدة .. وفكرت في أن أنضم للمناقشة بين طفلتي والفتاة .. هكذا سوف أظفر باسمها وعنوانها وعقاراتها ..

لكنها عادت قبل أن يحدث هذا ، وقال الخدم إن عربتها جاءت .

* * *

الفصل الثاني عشر

التماس

قالت لي السيدة إن ابنتها تتعافى من حادث ركوب حصان أثر على أعصابها بشدة .. السيدة ترغب في ألا تفارق ابنتها لكنها مرتبطة برحلة شديدة الخطر تتعلق بالموت والحياة ..

قالت لي إنني سأعرف التفاصيل فيما بعد لكن ليس الآن .. كل ما طلبته مني كان أن أعتني بابنتها .. لقد أحسنت اللعب وألقت نفسها بالكامل في بحر فروسيتي ..

في الوقت ذاته وبإحدى تصاريف القدر ، جاءت طفلتي جواري وبصوت خفيض اقترحت أن أدعو صاحبتها (ميلاركا) لزيارتنا .. وخطر لي أن هذا سيروق لها بالتأكيد ..

في ظروف أخرى كنت سأطلب منها أن تنتظر إلى أن تعرف على الأقل من هم .. لكن لم يكن عندي وقت للتفكير ..

لقد قهرني جمال الفتاة الشابة الذي لا يقاوم ، مع نيران الأصل الكريم .. لهذا وافقت وقبلت أن أعتني بالشابة التي تطلق عليها أمها اسم (ميلاركا) ..

أومأت السيدة لابنتها ثم راحت تحكي لها كيف أن ظروفًا قهرية تضطرها للرحيل وأنني سأعتني بها في هذه الفترة ..

ثم همست بكلمات لابنتها وقبلتها مرتين ، ثم رحلت يصحبها السيد الشاحب ببذلته السوداء ..

قالت (ميلاركا) :

ـ « في الغرفة المجاورة نافذة .. أريد أن أودع ماما هناك وأرسل لها قبلة .. »

هكذا وافقنا .. دخلنا الغرفة معها ووقفنا في النافذة ، فرأينا عربة أنيقة يحيط بها السعاة والخدم والأتباع .. الرجل المتأنق يضع عباءة على كتفي السيدة ويرفع الكبود ليغطي رأسها .. وبدأت العربة تتحرك ..

قلت لنفسي :

ـ « لقد رحلت ! »

وللمرة الأولى منذ وافقت بدأت أفهم حماقة ما فعلت ..

قالت الشابة فى حزن :

- « لم تنتظر لفوق قط ! »

قلت :

- « لقد نزعت قناعها لهذا لم ترد أن تكشف وجهها .. وما كان بوسعها أن تعرف أنك فى النافذة »

تنهدت ونظرت لى ..

كان جمالها مذهلاً لدرجة أننى أسفت لأننى ندمت على كرم الضيافة .. وصممت على أن أعوضها عن الجفاء الواضح الذى استقبلتها به فى البداية ..

طلبت الفتاتان منى أن نعود إلى حيث كانت الفرقة الموسيقية يجرى استعدادها ..

صارت صلة ميلاركا بنا وطيدة .. وسلتنا بكلامها المليء بالحيوية وقصصها عن القوم العظام الذين رأيناهم فى الشرفة .. صرت أميل لها أكثر فأكثر كل دقيقة .. كانت ثرثرتها مسلية فعلاً .. أنا الذى ابتعدت عن العالم فترة لا بأس بها ..

وأدركت أنها ستمنح الحياة لتلك الأمسيات الوحيدة الكئيبة فى دارنا ..

لم ينته الحفل حتى صارت شمس الصباح فى الأفق .. كان الدوق الكبير يحب أن يرقص حتى هذه اللحظة ، حتى لا يستطيع المخلصون له أن يرحلوا أو يخلدوا للفراش ..

كنا فى صالون مزدحم عندما سألتنى طفلتى عن مكان (ميلاركا) ..

كنت أحسبها معها وتصورت هى أنها معى ..

من الواضح أننا فقدناها ..

فشلت كل محاولاتى للعثور عليها .. وخشيت أن ترتبك فى محاولة البحث عنا فتفترض أننا أناس آخرون ..

الآن اتضح لى بوضوح مدى الحماقة التى ارتكبتها عندما استضفت هذه الآنسة .. بينما لا أعرف إلا اسمها .

وكنت مقيدًا بوعود لا أعرف سبب الإصرار عليها لكنها تحتم ألا أسأل .. كما كان من السخف أن أسأل الناس عن الآنسة التى هى ابنة الكونتيسة التى رحلت منذ وقت قصير ..

جاء الصباح ، عندما قررت أن أتخلى عن البحث .. وحتى الثانية من اليوم الثانى لم نعرف شيئًا عنها ..

فى هذا الوقت دق خادم على باب ابنة أختى ليقول إن سيدة صغيرة قلقة جدًا طلبت منه بجدية ، أن يخبرها عن

مكان الجنرال (شبيلزدورف) وابنته الشابة ، الذى تركتها أمها فى عنايته ..

لم يكن هناك شك .. صديقتنا الشابة قد ظهرت ، وليتنا فقدناها فعلاً !

حكت لطفلتى قصة تفسر بها كيف فشلت فى العثور علينا ..

فى ساعة متأخرة - كما تقول - دخلت غرفة نوم مدبرة المنزل يائسة من العثور علينا ..

هناك نامت نومًا طويلاً .. طويلاً لكنه جعلها تستعيد قواها من جديد بعد إرهاق الحفل ..

فى هذا اليوم جاءت (ميلاركا) البيت معنا ..

وكنت مسرورًا لأنى ظفرت برفيق رائع كهذا لفتاتى الصغيرة ..

* * *

الفصل الثالث عشر

الحطّاب

لم يخل الأمر من عيوب .. ففى المقام الأول كانت (ميلاركا) تشكو من كسل شديد .. الوهن الذى تلا مرضها الأخير .. ولم تخرج من غرفتها قط قبل العصر ..

بالإضافة لهذا كانت دومًا تغلق غرفتها من الداخل ، وتدس المفتاح فى القفل .. ولا شك فى أنها لم تكن فى غرفتها أحيانًا فى الصباح الباكر ..

أحيانًا فى الضوء الرمادى الشاحب للصباح كنا نراها تمشى بين الأشجار متجهة للشرق ، وتبدو كأنها غير واعية .

جعلنى هذا أعتقد أنها تمشى فى نومها .. لكن هذا لم يفسر لغز مغادرتها لغرفتها تاركة المفتاح فى القفل من الداخل ..

وسط هذه الحيرة انتابنى القلق بصدد أمر عاجل خطير ..

لقد بدأت طفلتى تفقد جمالها وصحتها .. وكان هذا بشكل غامض مخيف حتى أن الذعر سيطر علىّ ..

في البداية كانت تزورها أحلام مرعبة ، ثم كما تخيلت بدأت تزورها أطياف أو أشباح تمثل (ميلاركا) أحيانًا وأحيانًا تبدو كوحوش .. وهذه الوحوش تجوب غرفة النوم حول الفراش ..

بعد هذا تأتي الأحاسيس .. أحاسيس غير سارة لكنها ذات طابع خاص ..

يشبه الأمر كما قالت سريان تيار ثلجي في صدرها ..

في مرات أخرى كانت تشعر بإبرتين تخترقان صدرها تحت العنق بقليل .. فيدب فيه ألم حاد ..

أحيانًا كانت تشعر بالاختناق ثم تغيب عن الوعي ..

* * *

كنت أسمع كل كلمة يقولها الجنرال العجوز على حدة ، لأننا في هذه اللحظة كنا نمشي على الكلأ الذي يمتد لجانبي الطريق .. وأنت تدنو من القرية التي لم تر دخان مدخنة منذ نصف قرن ..

طبعًا يمكنك تخمين مدى الغرابة التي شعرت بها وأنا أسمع الأعراض التي تمر بي بالضبط .. بل إنه ذكر عادات كنت حتى هذه اللحظة أحسبها خاصة بضيفتنا (كارميلا) ..

انفتحت ثغرة في الأشجار ، فرأينا أننا تحت مداخن وأسقف القرية المخربة .. وبقايا القلعة المتداعية حولها أشجار عملاقة ..

ـ « وهنا كان يقيم آل (كارنشتاين) ! »

قالها الجنرال وهو يطل من نافذة كبرى على القرية .. رأى الغابة الممتدة بحدودها المتعرجة ..

واصل الكلام :

ـ « كانت أسرة كريهة .. وهنا كانت تكتب يوميات ملطخة بالدم .. لكن من الغريب بعد الموت أن يواصلوا تلويث الجنس البشري بالشهوات الفظيعة .. هنا كانت كنيستهم .. تحت .. »

وأشار إلى جدران عظيمة لبناية قوطية ، المشهد الذي تراه وسط الأشجار الكثيفة جزئيًا ..

وأضاف :

ـ « أسمع فأس حطاب .. إنه منهمك في قطع الأشجار .. أعتقد أنه يمكن أن يمنحنا ما نريد من معلومات .. يخبرنا بقبر (ميركالا) كونتيسة كارنشتاين .. هؤلاء الفلاحون يحافظون على تقاليد الأسر العظيمة .. بينما أسرار هؤلاء تفنى بين الأغنياء وتفنى الأسرة نفسها .. »

قال أبى :

- « لدينا صورة لـ (ميركالا) كونتيسة كارنشتاين فى بيتى .. هل تريد أن تراها ؟ »

- « فى وقت آخر يا صديقى .. أنا أؤمن أنى رأيتها فعلاً .. وما دفعنى للقدوم لك هو رغبتى فى استكشاف الكنيسة التى نحن ذاهبون لها .. »

فى دهشة قال أبى :

- « ماذا ؟ ترى الكونتيسة (ميركالا) ؟ لقد ماتت منذ قرن ! »

قال الجنرال :

- « ليست ميتة للدرجة التى تعتقدها .. »

أجاب أبى وهو ينظر له وبدأت درجة الشك السابقة :

- « أنت تحيرنى بشدة »

كان كلام الجنرال مليئاً بالحقد والغيظ ، لكنه كان خالياً من الهلوسة أو الخفة ..

مررنا تحت أقواس الكنيسة القوطية وقال الجنرال :

- « بقى أمامى شىء واحد يهمنى فى الأيام الباقية لى على الأرض .. أن أنزل بها الانتقام الذى أحمد الله على أننى قادر عليه »

فى دهشة سأله أبى :

- « عن أى انتقام تتكلم ؟ »

أجاب وقد احمر وجهه فى وحشية ورفع قبضته فى الهواء كأنه يمسك بمقبض فأس :

- « أن نقطع رأس الوحش !! »

صاح أبى فى ذهول :

- « ماذا ؟ »

- « نطير رأسها ! »

- « نطيره ؟ »

- « نعم .. بفأس قصيرة أو رفش أو أى شىء يمكن أن يمزق حلقها القاتل .. سوف تسمع »

ثم راح يرتجف انفعالاً ، وقال :

- « هذه العارضة الخشبية تصلح كمقعد .. إن أمامك مرحلة فدعها تجلس ، وأنا سأنهي قصتي المخيفة بعد بضع جمل .. »

كان قالب الخشب الملقى وسط العشب الذى يغطى إفريز الكنيسة يشكل مقعدًا سرني أن أجلس عليه .. في الوقت ذاته نادى الجنرال الحطاب الذى كان يرفع بعض الأغصان المستندة إلى الجدران القديمة .. وقد وقف الرجل قوى البنيان أمامنا والفأس في يده»..

لم يستطع أن يخبرنا بشىء عن هذه الآثار .. لكنه قال إن هناك حارسًا قديمًا للغابة يقيم حاليًا في بيت القس على بعد ميلين ، وبوسعه أن يخبرنا بكل أثر من آثار آل (كارنشتاين) ..

قال إنه سيجلبه لنا خلال نصف ساعة لو أننا أقرضناه جوادًا من جيادنا..

سأل أبى الرجل :

- « هل أنت مسئول عن هذه الغابة منذ زمن ؟ »

قال الرجل بلهجته العامية :

- « أنا حطاب هنا طيلة حياتي .. وكذلك أبى من قبلى .. وهكذا لعدة أجيال .. بوسعى أن أريكم البيت الذى كان الأجداد يعيشون فيه فى القرية »

سأله الجنرال :

- « لماذا صارت القرية مهجورة ؟؟ »

- « لقد هاجمتها الأشباح العائدة من القبور يا سيدى .. كان الناس يلاحقون أكثر هذه الأشباح إلى قبورها ثم يتخلصون منها بالسبل المعتادة .. قطع الرأس .. الوتد .. الحرق ، لكن قرويين كثيرين ماتوا أولاً »

وأردف :

- « بعد هذا كانت الكثير من القبور تفتح .. ويحرم مصاصو الدماء من وجودهم . لكن القرية لم تبرأ تمامًا .. سمع أحد السادة من (مورافيا) وكان مسافرًا من هنا هذه الأمور ، وكان بارعًا فيها كأكثر الناس في وطنه ؛ لذا عرض علينا أن يخلص القرية من معذبيها ..

« فعل ذلك على النحو التالى : اختار ليلة ساطعة القمر وتسلق برج الكنيسة بعد غروب الشمس مباشرة .. هكذا صار بوسعه أن يرى فناء الكنيسة تحته كما نراه نحن من هذه النافذة .. ظل يراقب حتى رأى مصاص الدماء يخرج من قبره ويضع جواره

قطعة الكفن التي كـان ملفوفًا فيها .. ثم يتجـه إلى القريـة ليهاجم سكانها ..

« رأى الغريب هذا كلـه فنزل من بـرج الكنيسـة وأخـذ قطعة الكفن وعاد بها إلى قمة البرج ..

« حينما عاد مصاص الدماء من جولته افتقد قطعة القماش، وصرخ في توحش في المورافي الذي رآه على قمة البرج، فتحداه هذا الأخير كي يصعد له ويأخذ الكفن ..

قبل مصاص الدماء التحدي، وبدأ يتسلق برج الكنيسة .. فلما وصل إلى المورافي أخـرج هـذا سيفه وشطر جمجمـة مصاص الدماء إلى نصفين، فسقط هذا الأخير على فناء الكنيسة .. وهكذا نزل المورافي وأخذ الجثـة لأهالي القريـة الذين غرسوا وتدًا في قلبها وأحرقوها .. »

« هذا النبيل المورافي حصـل على موافقـة رأس العائلـة على أن يزيل قبر (ميركالا) كونتيسة كارنشتاين . وقد فعل هذا حتى أن مكان القبر قد نسي تمامًا .. »

سأله الجنرال في لهفة :

- « هلا أشرت إلى موضعه ؟ »

فهز رجل الغابات رأسه وابتسم، وقال :

- « ما من كائن حي يستطيع إخبارك اليوم .. يقولون كذلك إن جسدها انتزع من هنا لكن أحدًا لا يعرف هذا بدقة .. »

كان وقت طويل قد مر .. لذا انصرف الرجل، بينما بقينـا نسمع باقي قصة الجنرال الغريبة .

* * *

الفصل الرابع عشر

اللقـــاء

واصل الجنرال :

ـ بدأت طفلتي تتدهـور .. فشل الطبيب الذى فحصها فى أن يجد سببًا معقولاً لمرضها ..

رأى ذعرى فاقترح عمل (كونسولتو) .. هكذا استدعينا طبيبًا نابهًا من (جراتس) .. مرت عدة أيام قبل أن يصل .. كان طبيبًا بارعًا ويتمتع بالثقافة ..

فحص الرجلان طفلتي المسكينة .. ثم انسحبا إلى المكتب للمناقشة .. كنت فى الغرفة الملاصقة أنتظر سماع استدعائى ، فسمعت صوتيهما يرتفعان بشكل حاد أكثر مما تقتضيه مناقشة فلسفية ..

عندما قرعت الباب ودخلت ، وجدت الطبيب العجوز من (جراتس) مصرًا على رأيه ، بينما الشاب زميله ينتقد النظرية بسخرية لا تخفى ، تصاحبها ضحكات ثقيلة .

لكن هذه المشاحنة انتهت بمجرد دخولى ..

قال الطبيب الأول :

ـ « زميلى المثقف يرى أنك بحاجة إلى مشعوذ لا طبيب »

قال الطبيب العجوز من (جراتس) وهو غير راض :

ـ « سامحنى .. سوف أجرب وجهة نظرى بصدد الحالة فى وقت آخر على طريقتى .. أخشى أن مهارتى وعلمى لن ينفعانى .. لكن قبل أن أرحل سوف أمنح نفسى شرف أن أقترح شيئًا عليك »

وبدا كأنه يفكر ، ثم جلس إلى منضدة وراح يكتب ..

لقد تركنى هذا الكونسلتو حيث كنت .. هكذا خرجت فى الحقول شارد الذهن ..

إلا أنه بعد عشر دقائق لحق بى ذلك الطبيب من (جراتس) .. اعتذر لى لأنه اقتفى أثرى ، لكنه لا يستطيع أن يرحل بضمير سليم ما لم يتبادل معى بضع كلمات ..

قال إنه لا يخطئ .. ما من مرض طبيعي يسبب ذلك العلامات .. وإن الموت قد اقترب جداً . لكن يبقى من حياة للفتاة يوم أو يومان .. لو توقفت النوبات القاتلة فربما أمكن للفتاة استعادة قواها .. لكن هجمة أخرى سوف تطفئ آخر وهج حياة .. وهذا الوهج على وشك النفاد على كل حال .

سألته :

- « ما نوعية النوبات التي تتكلم عنها ؟ »

- « شرحت كل شيء في المذكرة التي أضعها بين يديك .. بشرط أن تستدعي أقرب رجل دين وتفتح خطابي في وجوده .. لا تطلعه إلا عندما يكون معك .. وإلا فسوف تستهتر به برغم أنها مسألة حياة أو موت .. »

وهكذا أتصرف .. كان الكاهن متغيبًا لذا قررت أن أقرأ الخطاب بنفسي ..

في وقت آخر أو حالة أخرى لربما أثار سخريتي ، لكن ما أكثر دروب الدجل والشعوذة التي يسلكها الناس كامل

الخير عندما تغلق الطرق العلمية ، وتكون حياة شخص عزيز على المحك ؟

سوف تقول إنه لا شيء أكثر سخفًا من خطاب الطبيب المثقف ..

كان يرشحه بجدارة لمستشفى المجانين .

لقد قال إن المريضة تشكو من زيارات مصاص دماء !

إن الثقوب التي تصفها جوار حلقها هي في الحقيقة موضع غرس نابين طويلين حادين يميزان مصاصي الدماء .. دعك من العلامة الحمراء المحيطة بالثقبين التي وصفها العلم بأنها شفتا الشيطان .. وكل عرض لدى الفتاة يتسق تمامًا مع قصص سابقة لحالات مشابهة ..

كنت بطبعي لا أقبل وجود هذه الأمور .. لكنني كنت في أتعس حالاتي وأنا أنفذ ما في الورقة من تعليمات ..

أخفيت نفسي في غرفة تبديل الثياب المظلمة التي تفتح ببابها على غرفة الفتاة .. وكانت شمعة تشتعل فيها .. وظللت أنتظر حتى غابت في النوم ..

وقفت أنتظر جوار الباب والسيف جوارى على منضدة .. حتى تجاوزت الساعة الواحدة ..

رأيت جسمًا أسود عملاقًا غير محدد يزحف عند قدم الفراش ، ثم يتسلق حتى حنجرة الفتاة ثم يبدأ ينتفخ . ويتحول إلى كتلة نابضة ..

للحظات تحولت إلى تمثال .. ثم وثبت إلى السيف ..

تقلص ذلك المخلوق الأسود نحو قدم الفراش ثم زحف عليها .. وفجأة رأيت (ميلاركا) تقف هناك صورة من الرعب والشراسة ..

ضربتها بسيفى لكنى رأيتها عند الباب ..

ضربت من جديد وقد تملكنى الذعر فإذا بها قد رحلت !

تهشم سيفى إلى شظايا عندما اصطدم بالباب ..

لا أستطيع أن أصف لك ما حدث في تلك الليلة الرهيبة .. لقد استيقظ البيت كله وراح يتحرك .. لقد ذهب شبح (ميلاركا) لكن ضحيتها كانت تتلاشى بسرعة ..

وقبل الفجر ماتت ..

* * *

كان الجنرال العجوز متوترًا ..

لم نتكلم معه وابتعد أبى قليلاً وراح يطالع الأسماء على شواهد القبور .. ثم دلف إلى باب كنيسة . أما الجنرال فاستند إلى جدار وراح يجفف عينيه ويتنهد بحرارة ..

سرنى أن أسمع أصوات (كارميلا) والمدام قادمة ..

ثم زالت الأصوات ..

فى هذه العزلة ، وبعد سماع هذه القصة الغريبة ، التى ترتبط بهؤلاء الموتى كريهى المحتد الذين اختلطت بقاياهم بالتراب والنبلاء من حولنا ، وكل حادثة منها ترتبط بهذه

القضية الغامضة ، وفى هذه البقعة المسكونة التى تحيط بها الخضرة الكثيفة .. بدأ الذعر يستولى على ..

غاص قلبى فى قدمى وأنا أرمق هذا المشهد ..

كانت عينا الجنرال ترمقان الأرض إذ انحنى ويداه على قاعدة أثر مهشم ..

وتحت مدخل باب تعليه واحدة من تلك الشياطين القوطية الشائهة التى يهواها المزاج القوطى المولع بالرعب والتهكم معا .. رأيت فى مرور الوجه الجميل لكارميلا .

كدت أنهض وأتكلم ، ورددت على ابتسامتها بهزة رأس ..

فى هذه اللحظة التقط العجوز بجوارى فأس الحطاب وهجم عليها .. فما أن رأته حتى زحف تعبير متوحش على وجهها ..

كان تعبيرًا لحظيًا مرعبًا وهى تثب إلى الخلف ..

وقبل أن أصرخ هوى عليها بكل قوته ، لكنها تملصت ثم أمسكت به بقبضتها الرقيقة من معصمه .. حاول أن يحرر ذراعه للحظة لكن الفأس هوى على الأرض واختفت الفتاة ..

ترنح إلى الجدار وشعره الأبيض منتصب والعرق يبلل وجهه كأنما كان على شفا الموت ..

حدث كل شىء فى ثوان فلا أذكر إلا المدام تقف أمامى وهى تكرر بلا انقطاع :

ـ « أين المدموازيل كارميلا ؟ »

قلت لها :

ـ « لا أعرف .. ربما هناك .. »

وأشرت إلى الباب الذى دخلته :

ـ « منذ دقيقة أو دقيقتين .. »

« لكنى أقف فى الممر منذ دخلت المدموازيل كارميلا ولم تخرج من عندى .. »

ثم بدأت تنادى كارميلا من خلال كل باب وكل نافذة ..

سألنا الجنرال :

ـ « هل تسمى نفسها كارميلا ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « وهى أيضا ميلاركا .. وهى ذات المرأة التى كانت (ميركالا) كونتيسة كارنشتاين .. فلتفارقوا هذه الأرض الملعونة بأسرع ما تستطيعون .. ابقوا فى بيت الكاهن حتى نعود لكم .. اذهبوا .. فلربما لن تروا كارميلا ثانية ! »

* * *

الفصل الخامس عشر

المحاكمة والإعدام

بينما هو يتكلم ظهر رجل من أغرب من رأيت ودخل من الباب الذى دخلت منه (كارميلا) وخرجت ..

كان طويلاً ضيق الصدر منحنيًا يلبس الأسود ، كان وجهه أسمر ممتلأ بأخاديد عميقة .. وعلى رأسه قبعة عريضة غريبة المنظر .. وعلى عينيه عوينات مذهبة ، ووجهه ينظر للسماء أحيانًا وللأرض أحيانًا أخرى .

صاح الجنرال فى دهشة :

ـ « الرجل نفسه !!!! »

وبدا عليه سرور واضح ..

ـ « ما أسعدنى بلقائك أيها البارون العزيز !! لم أحلم بلقائك بهذه السرعة »

ثم جذب الرجل من ساعده وقدمه لأبي .. وأجرى التعارف بشكل رسمي ثم دخلوا في محادثة جادة حميمة ..

تناول الغريب لفافة ورق من جيبه وفردها على سطح قبر قريب .

كان معه قلم رصاص بين أصابعه رسم به خطوطًا تخيلية بين نقطة وأخرى على الورق ، فاستنتجت أنها تصميم كروكي للبناية التي نحن فيها ..

صاحب هذا الشرح كما لي أن أسميه بقراءة من كتاب متسخ صغير تلاصقت الكتابة على صفحاته الصفر ..

مشيا عبر الممر الجانبي أمام البقعة التي كنت أقف فيها ، يثرثران ثم بدأا يقيسان المسافات بالخطوات وفي النهاية وقفا مواجهين جدارًا ..

راحا ينزعان اللبلاب الذي يحيط به ويلتزعان الملاط بعصيهما .. يكحتان هنا وهناك .. في النهاية تأكدا من وجود قرص رخامي عليه كتابة محفورة ..

بمعاونة الحطاب الذي عاد رأينا نقشًا عملاقًا عليه شعار نبالة ..

يبدو أنه كان جزءًا من ضريح (ميركالا) كونتيسة (كارنشتاين) ..

لم يكن الجنرال كما بدا لي ممن يصلون ، لكنه ضم يديه للسماء كأنه يشكر الله ..

سمعته يقول :

ـ « غدًا سيكون القوميسير هنا .. وسيتم تنفيذ الحكم طبقًا للقانون .. »

ثم استدار للرجل المسن ذي العوينات ذهبية الإطار وهز كتفيه بقوة وحرارة ، وقال :

— « كيف لي أن أشكرك يا بارون ؟ كيف لنا جميعًا أن نشكرك ؟ سوف تنقذ هذه المنطقة من وباء ظل يطارد سكانها طيلة قرن كامل .. إن العدو المخيف والحمد لله قد تم تحديد مكانه .. »

اقتاد أبي الغريب جانبًا وتبعنا الجنرال ..

عرفت أنهم اتجهوا لمكان بعيد عن السامعين ليحكي قصتي .. ورأيتهم يحدقون في من وقت لآخر أثناء سرد القصة ..

دنا مني أبي ولثمني مرة ومرتين .. وإذ أخذني من الكنيسة قال :

— « جاء وقت العودة .. لكن أرى أن علينا أن نضم لمجموعتنا القس الطيب الذي يعيش قريبًا من هنا ، ونقنعه بأن يلحق بنا في القلعة »

هذه المرة نجحنا وكنت مسرورة بحق برغم أن التعب استبد بي لدى عودتنا للبيت ..

لكن سعادتي صارت رعبًا عندما لم أجد أثرًا لكارميلا .. لم أكن بعد قد فهمت معنى المشهد الذي رأيته في الكنيسة المهدمة وقدرت أنه سر يريد أبي أن يبقيه بعيدًا عني ..

اختفاء كارميلا جعل المشهد يبدو في ذاكرتي أكثر شناعة ..

هذه الليلة كانت الترتيبات استثنائية .. خادمتان والمدام في غرفتي .. بينما القس وأبي في غرفة الثياب الملاصقة .. وكان القس قد بدأ الليلة بطقوس معينة لم أفهم فحواها أكثر مما فهمت كل هذه الإجراءات التي قصد بها حمايتي أثناء نومي .

بعد أيام فهمت هذا كله ..

يجب أن أقول إن اختفاء كارميلا صاحبه انتهاء معاناتي الليلية ..

* * *

بلا شك أنت قد سمعت تلك القصة الخرافية المفزعة التي يحكونها في (ستيريا) و(مورافيا) و(سيليزيا) والصرب وحتى في روسيا ..

القصة التي تتحدث عن مصاصي الدماء ..

حتى لو جمعت شهادات الناس بكل دقة وحرص ، أمام لجان لا حصر لها ، وكل لجنة منها اختير أعضاؤها على أساس الذكاء والكفاءة ، فإن من العسير أو شبه المستحيل أن تنكر وجود ما يدعى (مصاص الدماء) ..

بالنسبة لي لم أسمع أية نظريات عما رأيته وسمعته بنفسي ، باستثناء ما يؤمن به عامة الناس في ريف البلاد .

في اليوم التالي دارت الطقوس الرسمية في كنيسة (كارنشتاين) ..

تم فتح قبر الكونتيسة (ميركالا) فميز أبي والجنرال ذلك الوجه الغادر رائع الجمال . . .

مائة وخمسون عامًا منذ جنازتها لكن ملامحها تحمل دفء الحياة .. عيناها مفتوحتان ولا رائحة عفن تنبعث منها ..

قام طبيبان بفحص الجثة فأعلنا الحقيقة المروعة أن هناك نبضًا خافتًا وكذا تنفسًا يمكن الإحساس به .. الأطراف كانت لينة والجلد كان طريًا .. بينما امتلأ التابوت الرصاصي بالدم لعمق ست بوصات وقد رقد الجسد فيه .

هكذا اكتملت كل علامات وأدلة مص الدماء ..

تم استخراج الجسد طبقًا للممارسات القديمة ، وتم إيلاج وتد في قلب مصاص الدماء الذي أطلق صرخة حادة تثقب الأذنين كأنها تنطلق من شخص حي لحظة الاحتضار ..

ثم تم قطع الرأس فانفجر الدم من مكان القطع ..

بعد هذا تم وضع كل شيء على كوم من الخشب وأضرمت فيه النار .. ثم ألقي الرماد في النهر ..

ومن ذلك الحين لم ترزق المنطقة بزيارات مصاصي الدماء ..

لدى أبي نسخة من القرار الملكي وعليه توقيع كل من شهدوا هذه الأحداث .. وقد اعتمدت على هذه الورقة في وصف تلك الأحداث .

* * *

الفصل السادس عشر

الخلاصة

أنتم تعتقدون أني أكتب هذا الكلام برباطة جأش لكنني لا أفكر في الأمر إلا وارتجفت ..

لم يدفعني شيء سوى رغبتكم الصادقة المتكررة كي أجلس وأحكي قصة مزقت أعصابي لمدة أشهر ، وألقت بظل من رعب لا يوصف سيظل برغم مرور أعوام على تحرري يجعل ليالي وأيامي مرعبة ، ويجعل وحدتي رهيبة .

دعوني أحكي لكم شيئاً عن البارون الجذاب الغريب (فوردنبورج) الذي نحن مدينون لخبرته والذي استطاع أن يجد قبر (ميركالا) ..

كان يعيش في (جراتس) على دخل ضئيل هو كل ما بقي له من أملاك أسرته الثرية ، وقد كرس نفسه للتحقيق في موضوع مص الدماء الموثق ..

كانت تحت يديه كل المراجع المهمة فى الموضوع مثل (ماجيا بوستيوما) .. (فليجون دى ميرابليبوس) .. إلخ ..

لا أذكر إلا مجموعة محدودة من العناوين التى أقرضها لأبى .. وقد درس كل الحالات التى تم فيها بالفعل تنفيذ الإعدام بحق مصاص دماء ، هكذا توصل إلى قواعد تحكم أحيانًا حالات مصاصى الدماء هذه .

مثلاً أذكر بالمناسبة أن اللـون الشـاحب الميت الـذى ينسبونه لهذه الشياطين هـو خيـال مسرحى .. إنهم يبدون فى القبر وفى المجتمعات كأنهم أصحاء ..

حينما ترى توابيتهم فى الضوء تجد كل العلامات المماثلة لتلك التى وجدناها فى حالة الكونتيسة (كارنشتاين) ..

أما عن كيفية مغادرة القبور والعودة لها دون أن يظهر خلل فى التربة أو غطاء التابوت فأمر لا يمكن تفسيره ..

إن طبيعة مصاص الدماء الثنائية يحافظ عليها بقاؤه فى القبر طيلة النهار .. بينما الجوع المريع للدماء هو الشىء الذى يجعله يصحو من نومه ..

أحيانًا تستبد بمصـاص الدمــاء شـهوة قويـة كشـهوة الحب .. وهذه الشهوة تتعلق بأناس معينين لذا فى بحثه عنهم يظهر صبرًا لا ينفد وتكتيكًا متقنًا .. وهو لا يتوقف أبدًا إلا إذا حصل على غرضه .. وإلا إذا امتص الحياة من ضحيته المشتهاة ..

لكنه لهذا الغرض وعلى طريقة الذواقة يطيل عذاب ضحيته عمدًا ويؤجل متعة القتل .. ويزداد لـذة كلما اقترب من هدفه ..

لقد كنت أنا حالة خاصة جدًا ..

كانت (ميركالا) مرتبطة بأن تتخذ اسمًا إن لم يكن اسمها الحقيقى فعلى الأقل يتكون من ذات الحروف بلا زيادة أو نقصان ..

اسم (كارميلا) حقق هذا وكذا اسم (ميلاركا) ..

حكى أبـى للبـارون (فوردنبـورج) الـذى أقـام معنـا أسبوعين أو ثلاثة بعد قتل (كارميلا) قصة السيد المورافى

ومصاص الدماء فى كنيسة (كارنشتاين) ، ثم سأل البارون عن الطريقة التى وجد بها قبر (ميركالا) المختفى منذ قرن ..

اتخذت ملامح البارون العجيبة شكل ابتسامة غامضة ونظر لأسفل ، وراح يبحث فى جراب عويناته ، وقال :

- « لدى مجلات وكتب عديدة كتبها هذا الرجل المرموق .. وأكثرها غرابة يحكى فيه عن تلك الزيارة التى قام بها إلى (كارنشتاين) .. إن التقاليد تتبدل مع الوقت كما تعرف ..

« قيل إنه من نبلاء مورفيا لأنه عاش فى تلك البقعة ولأنه نبيل الأصل .. لكنه فى الحقيقة كان من سكان (ستيريا) الأصليين .. فى شبابه كان الحبيب المفضل والأكثر حرارة للكونتيسة (ميركالا) الحسناء .. وقد سبب له موتها حزنًا لا يوصف ..

« من عادة مصاصى الدماء أن يتكاثروا لكن طبقًا لقانون شيطانى صارم .. تصور منطقة خالية منهم . فكيف يبدأ الأمر وكيف يتضاعف ؟

« سوف أخبرك .. شخص ما شرير أو مذنب يقتل نفسه .. المنتحر فى ظروف معينة يتحول إلى مصاص دماء .. يزور هذا الكيان الناس أثناء نومهم فيموتون ويتحولون بشكل محتوم إلى مصاصى دماء فى القبر ..

« هذا ما حدث مع ميركالا التى استحوذ عليها أحد تلك الشياطين .. إن سلفى (فوردنبورج) الذى ما زلت أحمل لقبه قد اكتشف هذا واكتشف أكثر منه خلال بحثه المضنى ..

« من ضمن ما استنتجه أن تهمة مص الدماء سوف تتجه عاجلاً أو آجلاً نحو الكونتيسة الميتة التى كان يهيم بها حبًا فى حياتها ..

« أصابه الهلع من أن تنتهك حرمة رفاتها بفضيحة تنفيذ حكم الإعدام بعد الموت .. لم يتحمل هذه الفكرة سواء كانت الكونتيسة بريئة أم لا ..

« ترك ورقة غريبة يقول فيها إن مصاص الدم إذ يتخلى عن طبيعته الثنائية ، يقذف به إلى حياة بعيدة أكثر شناعة .. وقد اختار أن ينقذ حبيبته (ميركالا) من هذا ..

« قام برحلة هنا وتظاهر بأنه تخلص من بقاياها وأغلق قبرها .. لكن حينما تقدم به العمر استرجع مشاهد حياته فبدأ يدرك ما اقترفه .. وبدأ الرعب يستحوذ عليه ..

« وضع العلامات التى ساعدتنى على بلوغ ذات البقعة .. واعترف بالخديعة التى مارسها .. ولو كان ينوى القيام بشيء أبعد من هذا فقد حرمه الموت منه »

تكلمنا فى أمور كثيرة .. ومن ضمن ما قاله البارون :

- « من علامات مصاص الدماء قوة يده .. يد ميركالا الرقيقة قد أطبقت كمصيدة من الصلب على ساعد الجنرال حينما أراد أن يضربها بالفأس .. بالإضافة لهذا تترك هذه اليد تنميلاً فى الطرف الذى تمسك به يصعب أن يشفى منه .. »

* * *

فى الربيع التالى أخذنى أبى فى رحلة إلى إيطاليا ..

ظللنا بعيدين عن الوطن نحو العام . لقد استغرقنا وقتاً طويلاً حتى توارت ذكريات هذه الأحداث .. لكن (كـارميلا) ما زالت تجد طريقها إلى ذاكرتى بأشكال غامضة متنوعة ..

أحياناً هى تلك الفتاة اللعوب الخاملة الجميلة ، وأحياناً ذلك الوحش المتلوى الذى رأيته فى الكنيسة المهجورة .. وأحياناً تولد من حلم يداعبنى أتخيل فيه أننى أسمع صوت خطوات (كارميلا) الرقيقة على باب غرفة المعيشة .

تمـــت

شريدان لو فانو

١٨٧٢